ليالى سطيح

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01863 0776

DT
70
H22
C.2

لبالى

سطيح

قرأت هذا الكتاب
فى ٢٤ ابريل ٢٠٠١م

قرأت هذا الكتاب فى
٢١ مارس ١٩٤٢م
محمد شعبان
المحرر النفى بالداخلية

لمنشئه

محمد حافظ ابراهيم

٢٠٨

﴿ طبع على نفقة ﴾

(عبد العال احمد محمد الله)

باذن من المؤلف

﴿ مطبعة محمد محمد مطر بالحمزاوى بمصر ﴾

OCLC
1012397515
B12649557
15703836

سطيح

حدّث أحد أبناء النيل قال :

ضاقت عن النفس مساحتها لهمّ نزل بى وأمر بلغ منى فخرجت أروح عنها وأهون عليها فما زلت أسير والنيل . حتى سال ذهب الأصيل . فاذا أنا من الاهرام . أدنى ظلام [1] وقد فتر منى العزم وسئمت الحركة فجلست أنفّس عنى كرب المسير واضطجعت وما تنبعث فيّ جارحة من التعب وكنت من نفسى فى وحدة الضيغم . ومن همومى فى جيش عرمرم وجعلت أفكر فى هذا الدهر وأبنائه فجرى على لسانى ذكر ذلك البيت

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

---

(١) أعني قريباً

فرددته ماشئت . وتغنيت به ما استطعت . وقلت أى والله لقد صدق القائل ماخلق الله خلقاً أقل شكراً من الانسان . ولا أطبع منه على افتراء الكذب والبهتان

ثم مر بالخاطر . بيت آخر

تبارك أنهار البلاد سوائح بعذب وخصت بالملوحة زمزم

فنقلت اليه متاعى وحولت حاشيتى وما متاعى غير الأمانى السانحة . ولا حاشيتى سوى الهموم الفادحة . ولبثت اتفيأ من ظلاله . وأتأمل فى حسن أشكاله . وإنى لكذلك اذ سطعت ريح كريهة انهزم أمامها النسيم وأنقبض لها صدر الجوّ وتعبس بها وجه النهر فعلقت أنفاسى ولكن بعد أن نالنى منها ماصدع الرأس وغشى البصر ولما أفقت من هذه الغشية وانجلت تلك الغاشية نظرت فإذا أصل البلاء جيفة فوق وجه الماء . فغاظنى ماأرى وهاجنى ماأشم وقلت أخاطب النيل :

« ويحك الى متى يسع حلمك جهل هذه الأمة المكسال وإلى كم تحسن اليها وتسيى إليك . علمت أن سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك واتكلت على حلمك وبالغت بعد ذلك فى عقوقك ولقد كانت ترجو فى سالف الدهر خيرك وتتقى شرك فتحتفل فى مهاداتك وتتحامى طريق معاداتك . أذاقتك وصال الحسان . وخالفت فيك

شريعة الديان . وأرشفتك رضاباً أعذب من مائك . وأحلى من وفائك . ثم غيرها عليك الزمان فجادتك بعرائس الطين . بعد عرائس الحور العين . وأمعنت فى العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ثم أمعنت فى العقوق فصيرتك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى البلاء . ومستودعاً للوباء الوباء

سبحانك اللهم هذه زمزم على ملوحتها قد عزت بجوار بيتك القديم فتهادى بمائها القصاد . وحملوه إلى أقصى البلاد وحرص أهلها على عينها حرص المرء على عينه . وهذا النيل على عذوبته قد ذل بجوار قوم أهانوه . ولو كان عند غيرهم لعبدوه وتالله لو جرى فى غير مصر لبنوا عليه أسواراً من النفوس وأقاموا عليها حرساً من الضمائر . أف لتلك الأمة جهلت قدر محييها ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الأرزاق . ومن حمرة مائه تخضر تلك الأوراق . أف لها ما أقل شكرانها وأكثر كفرانها . ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه ويكتب فيها الكاتب فينبري له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلها فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره . ويقهره على شعره

يارب اخرجني الى دار الرضا عجلا فهذا عالم منحوس
ظلوا كدائرة تحول بعضها عن بعضها فجميعها معكوس

ثم انى أمسكت عن الكلام . وعزمت على التحول من هذا المكان . وإنى لأهم بالنهوض إذ وقع فى سمعي صوت إنسان . يسبح الرحمن . يقول فى تسبيحه سبحان من حكم على الخلق بالفناء سبحان من تفرد بالبقاء . فخشع قلبي عند ذكر الله وقلت انطلق إلى صاحب ذلك الصوت فلعلى أظفر بأحد عباد الله الصالحين . فأستدعيه لى دعوة يمحوا الله بها أثر استجابته فىّ لدعوة ذلك « الأمام » فثرت من مكانى وأخذت سمتي إلى جهة الصوت وكنت إذ ذاك فى أوليات الليل وتالله إنى لأقترب منه وإذا به يقول

أديب بائس . وشاعر يائس . دهمته الكوارث . ودهته الحوادث . فلم تجد له عزما . ولم تصب منه حزما خرج يروح عن نفسه . ويخفف من نكسه . فكشف له عن مكانى وقد آن أوانى . أى فلان لقد أخرجت للناس كتابا ففتحوا عليك من الحروب أبوابا . وخلا غابك من الأسد فتذاءب عليك أهل الحسد . أى فلان إذا ألقى عصاه ذلك المسافر . وغادر بحر العلم أرض الجزائر . فقد بطل السحر والساحر . فانكفىء الى كسر دارك . وبالغ فى كتم

أسرارك واقبل غدا مع الليل . وترقب طلوع سهيل . ومتى سمعت من قبلنا التسبيح . فقل لصاحبك الذى يليك هلم إلى سطيح

ثم انقطع صوته فلبثت فى مكانى حتى استوحشت لوحدتى وانفرادى فى جوف ذلك الليل فرجعت أدراجي وكنت منذ لقيته وأنا فى ذهول من عقلى . ودهشة من أمري . ولما ثاب إلى السكون جعلت أتأمل فى عباراته وأتروى فى مغزى سجعاته . وقلت فى نفسى لقد كنت أعلم أن سطيحا قد قضى نحبه . ولقى ربه . فهل صدق القائلون بالرجعة أم جعل الله لكل زمن سطيحاً . على أنى فى غد سألقاه . وأطلب إليه أن أراه . وأسأله عن أشياء كتمتها فى صدرى . وكادت تدخل معى قبرى

فانطلقت حتي إذا بلغت دارى وقد شابت ذوائب الليل أخذت مضجعى وجعلت أعالج النوم ولكن طافت بالرأس طائفة من الافكار . فباعدت ما بين الجفنين . وأزعجت ما بين الجنبين . فأقضّ (١) علىّ المضجع وحاربى الفراش فقمت إلى الشمعة فأشعلتها . والى لزوميات أبى العلاء ففتحتها . فوقع نظرى فيها على قوله

---

(١) القض والقضيض هو الحصى الصغير واقض عليه المضجع أى امتلأ عليه حصا فتعذر عليه النوم

أيادار الخسار الى خلاص فاذهب للجنوب أو الشمال
وظلم ان أحاول فيك ربحاً ولم أخرج اليك برأس مال

فاستشعرت نفسى الراحة وسرى عني ما كنت أجده من الغم. ونشطت الى القراءة فما زلت أنهل من معانٍ لم تخضها أعين القارئين ولم يخلقها تداول الألسن وأتروى من حكم فجر الله ينبوعها فى جوف ذلك الحكيم حتى فصحني (١) النهار فنمت ماشاءت العين وانتبهت وقد بلغ ظل كل شيء مثليه فأصلحت من شأني وخرجت أطلب الموعد ونفسى إلى رؤية سطيح فى شوق الأسير إلى الفكاك وقد حضرنى قوله « فقل لصاحبك الذي يليك هلم إلى سطيح » فجعلت أقول ياترى أىّ صاحب عنى ولكن لعل الأسباب التى ساقتنى الا الاهتداء اليه تجمع بيني وبين ذلك الصاحب فما زلت أواصل السير وأنا بمنزلة بين الريث والعجل حتى بلغت مكان الأمس فإذا فيه إنسان أعرفه قد أطرق إطراق المتأمل وسكن سكون الوقور فكرهت أن أقطع عليه تأملاته وقلت لم يجلس هذا الرجل العظيم تلك الجلسة إلا وهو يريد الانفراد بنفسه فلعله يفكر فى خير لوطنه وسعادة لأبنائه فجلست على كثب منه وألقى فى روعى إنه طلبة سطيح ولبثت

(١) فصحة النهار اذا ظهر له ضوء

أنظر اليه ولبث ينظر فى أمره حتى مرت بالنهر جارية عليها من الجوارى الحسان مايفتن اللب ويملك القلب وهن مبتذلات يخضن فى اللهو ويمرحن فى اللعب وبينهن رجال تستروح منهم روائح السلطة والجاه يتهادون رياحين المجون ويتعاطون كؤوس الراح . ممزوجة برضاب أولئك الملاح . فرأيت صاحبي وقد رفع رأسه ومد عينيه ثم تأوه آهة الرجل الحزين وقال يحدث نفسه بصوت تسمع فيه رنة الاسف ألا يأتى أولئك الموكلون بالرد على أهل الصواب فينظروا ماصنع أهل النعيم . فى يوم شم النسيم . ويروا كيف ابتذلت فيه الخدور . ونفقت سوق الفحش والفجور . فلقد فعلوا تحت الحجاب ماينكس له الأدب رأسه ودعوناهم الى غير ذلك فأبوا علينا الطلب وانكروا الدعوة وقالوا إن فى تربية النساء مالا تحمد معه المغبة وأن فى اختلاطهن بالرجال مايسوء معه المصير وصاح يومئذ صائحهم إن فى ذلك عقوقاً لأوامر الدين وانحرافاً عن صراط السلف الصالح ودعانا شاعرهم الى اليأس من جدالهم . فى طلب أصلاح حالهم بقوله

فلو خطرت فى مصر حواء أمنا
يلوح محياها لنا ونراقبه

وفى يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الاملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنا رفع القباب محلل
لقلنا نعم حق ولكن نجانبه

ولقد صدق الشاعر . واستهتر المقابر . وغفل الحق عن الباطل فصمتنا حتى ينتبه الحق من غفلته ولا زلنا الى اليوم صامتين .

ولما نفث ما بصدره وعاد إلى سكونه تراءيت له ثم حييته وجلست اليه أحدثه ويحدثنى وقد أقبل بوجهه علىّ وتبسط معى على الأنس فذكرت له حديث سطيح وما كان من امره فهزه الشوق الى رؤيته وقد كنت أخبرته أن سطيحا جعل لى آية إلى لقائه فلبث يرتقب معى طلوع سهيل . ويتسمع التسبيح فى جوف ذلك الليل . حتى إذا لاح النجم فى السماء وعرفناه بما وصفه به ابو العلاء .

وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان
مستبداً كأنه الفارس المعـ لم يبدو معارض الفرسان
ضرّجته دماسيوف الأعادى فبكت رحمة له الشعريان

القينا بالسمع وأمسكنا عن الكلام فلما علا التسبيح هرولنا إلى سطيح وإذا بالصوت الذى سمعته بالأمس ينادى صاحبي بقوله

صاحب مذهب جديد . ورأى سديد . دعا القوم إلى رفع الحجاب . وطالبهم بالبحث فى الأسباب . فألقوا معه نقاب الحياء . وتنقبوا من دونه بالبذاء . أى فلان إذا مضت على كتابك خمسون حجة وظهر لذى العينين أدلاؤك بالحجة تكفل مستقبل الزمان . بأقامة الدليل والبرهان . فلعل الذى سخر لجماعة الرقيق والخصيان . من أنقذهم من يد الذل والهوان يسخر لتلك السجين الشرقية . والأسيرة المصرية . من يصدع قيد أسرها . ويعمل على إصلاح أمرها .

أوصى نبينا بالضعيفين « الرقيق والمرأة » فخالفنا وصيته ولم نتبع سنته . قمنا إلى الأول فجبنا منه المذاكير . وعمدنا إلى الثانية فزججنا بها فى سجن المقاصير . فقيض الله للأول من أعدائنا من دعا إلى عتقه . وسعى سعيه في تحريره من أسره ورقه . وتالله ليأتين يوم تقوم فيه النساء الغربيات . تطالب برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات . وهنالك يعرفون قدر كتابتك . ويقدرون مقدار خطئهم من مقدار صوابك فانتظر وان طال الأمد ذلك اليوم . ولا

تبخع نفسك أسفاً على أثر القوم . فهم أقل العالمين شكراناً . وأكثر خلق الله كفرانا

وهل أتاك حديث تلك المصرية الصالحة اذ رأت قومها يعانون أصناف الشقاء فى دفن موتاهم لو عور طريق المقبرة وقيام التلال فى سبيلها فأنفقت من مالها على تمهيد تلك السبيل احتساباً للخالق ورأفة للمخلوق فكان منهم ان كافؤوها على ذلك العمل المبرور بأن سموا طريق المقبرة : (بقطع المره) فانظر إلى أى حد بلغ العقوق من نفوس قومها واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا .

ثم انقطع صوته فأشفقت أن يكون نصيبى من رؤيته كنصيب الأمس فقلت له يا ولىّ الله قد سمعنا صوتك ولم ننظر إلى شخصك فهل لك أن تمن علينا برؤية شخصك الكريم . كما منت علينا بسماع قولك الحكيم . فقال لقد قدر أن ترانى . بعد أن كشف لك عن مكانى . فلا تقطع غدك الزيارة . واذكر ما بيننا من الاشارة . ثم أخذ فى تسبيحه وأخذنا فى طريقنا إلى المنازل وما زلنا نخوض فى أحشاء الليل وفى صنوف الأحاديث حتى بلغنا منتزه الجزيرة فاذا نحن بشابين يمشيان على الأقدام فدانيناهما لنسمع ما يدور بينهما فاذا الأصغر يقول للأكبر هل لك أن تذكر لى أقصى أمانيك فى هذه

الحياة الدنيا قال الأكبر أقصى أمانيّ أن أصبح « الرئيس الشرف » للمحكمة المختلطة فأجلس فى كل عام ساعة واحدة أنقد عليها ما يقوم بنفقة العام كله فان أسعد المصريين حالا وأرخاهم بالاً من سهلت له الأقدار الجلوس على ذلك الكرسى الذى لا يسأل صاحبه عن الخطل . ولا يخشى عليه من الوقوع فى الزلل . قال الأصغر أفّ لك تتمنى الرزق فى ظلال الكسل . والبعد عن الكد والعمل . أما أنا فأقصى أمانيّ أن أكون مثل ذلك التلميذ الذى دخل منذ عامين فى مدرسة المهندسين فانه قد بلغ من الإكرام والتعزيز منزلة لم تبلغها أولاد القياصرة . فإذا حق لمتعلم أن يفتخر فهو الحقيق بالفخر فانه يتلقى دروسه على انفراد فى « فصل السنة الاولى » من طائفة من المعلمين الانكليز ينقد أقلهم مرتباً خمسة وثلاثون قطعة من الذهب ولو شاء القيصر تعليم نجله الوحيد لما فعل أكثر من ذلك وهذا كله بفضل عناية ديوان المعارف وحرص القائمين فيه بالأمر على التعليم

قال الأديب فامتلأنا عجبا من ذلك الحديث وانطلقنا حتى إذا جاوزنا مربض الليثين أخذ كل منا طريقه الى داره ولما بلغت منزلى أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغابرة فقلت ما لهذا الأرق

من دواء . إلا لزوميات أبي العلاء . فقمت اليها وفتحتها فأخذ نظرى فيها قوله

الروح والجسم من قبل اجتماعهما كانا وديعين لاهما ولاسقما
تفرد المرء خير من تألفه بغيره وتجر الألفة النقما

ثم قرأت قوله

اسمع نصيحة ذى لب وتجربة يفدك فى اليوم مافى دهره علما
إذا أصاب الفتى خطب يضر به فلا يظن جهول أنه ظلما
قد طال عمرى طول الظفر فاتصلت به الأذاة وكان الحظ لو قلما

فقلت إى والله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شعوب . وتطلب السلامة من عاديات الخطوب . والاعمار كالأظفار كلما طالت تخللتها الاقذار . واستبشعت رؤيتها الأبصار

وهكذا أفنيت فحمة الظلام وأنا أنزه النفس بين تلك السطور والكلمات حتى صاح ديك الصباح . فأخذنى النوم ولم أنتبه حتى شمر النهار أوكاد . فشمرت إلى الموعد ولما بلغت المكان المعهود الفيت فيه سورياً من صفوة الأدباء كانت لى به صحبة قديمة فقلت لأمر ماجلس الأديب تلك الجلسة واختلس من رقدة الزمان تلك الخلسة . فقال بعد أن هش لرؤيتى وبش للقائى جلست أبث إلى

النيل شكاتى من ابنائه وأنت تعلم أنهم صارمونا على غير ريبة وقاطعونا عن غير ذنب وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ولم يراعوا حق الجوار فسموا أقدامنا قحة ونشاطنا جشعا . وكدحنا وراء الرزق فضولاً ونزوحنا عن الوطن عاراً وضربنا فى الارض شروداً وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق فى بلاد الله اللهم انها محاسن عدوها عيوبا وحسنات سموها ذنوباً

إذا محاسنى اللاتى عرفت بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

وما ذاك الا لأنا لا نحسن التنكيت . ولا نتقن التبكيت قلت له وقد وقع فى نفسى كلامه وبلغ منى مقاله خفض عنك أيها الأديب فسأرفع أمرك الى سطيح قال ومن سطيح قلت أنك لا تلبث أن تسمع كلاماً أحلى من الأوبة . وأروح للنفس من مغبة التوبة . ثم أخبرته الخبر فلبث ينتظر الآية معي حتى لاحت فأخذنا طريقا إلى سطيح وإذا به يقول لصاحبى

أختان أمهما اللغة العربية . تشرف عليهما الدولة العلية . مصر دار الأمان . وسوريا روضة الجنان . أى فلان ضع خريطة الأرض بين يديك . ثم اغمض بعد ذلك عينيك . واهو بأصبعك عليها . وانظر نظرة الحكيم إليها . تجد فى موقع ذلك الأصبع . سورياً

يعمل ويبدع . فأنتم أهل العمل والنجدة . وان كان بأخلاقكم بعض العهدة (١)

يهبط السورى مصر لطلب القوت فإذا أثرى بكده وعمله واراد القفول إلى وطنه حمل تلك الثروة إلى بلاد الدولة العلية ويهبطها الرومي فيثرى ما شاء ثم يحاربها بتلك الثروة ومن العجب أن يكثر القال والقيل . ويدعى الأول بالدخيل . ولم يجر للثانى ذكر على اللسان . وهو الحقيق بالجفاء والعدوان .

أنسى أبناء اللسان العربى أن جماعة السوريين قد بلغوا فى نشر اللغة العربية منزلة لم تبلغها جماعة المبشرين فى نشر الملة المسيحية .

ذكر ابن عقيل ذلك التاجر السائح انه اتفق له فى إحدى سياحاته ببلاد الصين ان حاول الدخول فى مسجد من مساجد المسلمين فيها فوقف فى وجهه خادم المسجد وقال له إن بيوت الله لا تطأ أرضها الطاهرة قدم غير المسلم فاخرج منها فانى لك من الناصحين قال ابن عقيل وقد ساءته قولة الخادم ومن أين لك الحكم بعدم إسلامي ولم ترنى قبل اليوم قال سمعتك تتكلم بالعربية ولا نعهد في بلادنا من يتكلم بتلك اللغة إلا جالية السوريين من المسيحيين ولولا أن شهد بعض من

---

(١) أعني بعض المآخذ

كان حاضراً ممن يعرفون الرجل بصدق أسلامه لحيل بينه وبين الصلاة .

ولو كان نصيب المسلم السورى من التعليم نصيب المسيحى من أبناء بلده لرأيت منه رجلا اذا تعلم أفاد . واذا عمل أجاد

هذا صاحب طبائع الاستبداد وام القرى . بلبل أفلت من يد « الصياد » فغنى . وشم نسيم الحرية فتمنى . وهذا صاحب المنار فاءت له الحرية بعذقة من الظل . وجادته سماء الاستقلال بقليل من الطل . فصاح صيحة فى خدمة الدين اخترقت أحشاء الهند والصين . وذلك صاحب أشهر مشاهير الاسلام . غادر أرض الشآم فألف . ونزل فى دار الأمان فصنف . ولكن لأمر سبق فى علم الله قدر على المسلم أن يعيش مع الهمل . وأتيح للمسيحى أن يصبح من أهل العلم والعمل .

ثم أمسك سطيح عن الكلام فقال له صاحبي السورى لقد ذكرت ياولىّ الله فى عرض حديثك أننا وإن كنا من أهل العمل والنجدة . الا أن باخلاقنا بعض الهمدة . فما عسى يكون ذلك النقص الذى يراه فينا إخواننا المصريون

قال سطيح أنى لأكذب الله لقد أكثرتم من التداخل فى شؤونهم فعز ذلك عليهم . من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رحبا . وتفيأتم ظلالهم فأصبتم خطبا . ثم فتحتم لهم أبواب

الصحافة فقالوا أهلا . وحللتم معهم فى دور التجارة فقالوا سهلا . ولو انكم وقفتم عندهذا الحد لرأيتم منهم وداً صحيحا . وإخلاصاً صريحا ولـكنـكم تخطيتم ذلك الى المناصب فسددتم طريق الناشئين . وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . وأنتم تعلمون ان المصرى يعبد خدمة الحـكومة فهو يصرف اليها همه . ويقف عليها علمه . فهى ان فاتته فاته الامل . وفتر نشاطه عن السعي والعمل . وهو لا يفتأ ينتظر الدخول فيها بقية عمره . انتظار القوم عودة الحاكم بأمره . فماضركم لو جاملتموهم فرغبتم عن الانكباب . فى دخول ذلك الباب أليس لـكم عنه مندوحة وأمامكم وجوه الرزق كثيره . ومادتكم فى الـكسب غزيره . حببت اليكم الحركة وحبب اليهم السكون وجبلتم على الجد وجبلوا على المجون . فاصرفوا نفوسكم عن مزاحمتهم فى أعز الأشياء عليهم حتى تخلق الحاجة فى نفوسهم شعوراً جديداً فيحس ناشئهم انه انما يتعلم لنفسه ولأمته لا لخدمة حكومته .

قال صاحبى وهل فى ذلك ما يأخذه علينا الآخذون وأنت تعلم ان الحياة مزدحم الاقدام وملتحم الاقوام فان كنا قد أخطأنا فى فعلنا فهل أخطأت الحكومة فى قبولنا . وهل أصاب المصرى فى بغضنا .

قال لقد أصبتم فى عملـكم وأصابت الحـكومة فى قبولـكم

وما أخطأ المصري فى بغضكم . أما أنتم فطلاب للقوت وطالب القوت ماتعدى . وأما الحكومة فضالتها عامل ينصح فى عمله فهى أنى وجدته طلبته وأما المصريون فلانكم غلبتموهم على أمرهم . بانتشاركم فى انحاء قطرهم . وهم يرون أن فيهم الاكفاء . لحمل تلك الاعباء . ولقد كنتم منذ بضع سنين لاتجاوزون ستة الآلاف عداً فأصبحتم اليوم وقد نيفتم على الثلاثين .

قال الراوى

ثم سكت سطيح وسكت صاحبي فقلت ياولىّ الله ان عندى سؤالاً طالما بحثت فى جوابه فلم اقع فيه على الصواب قال قل وأوجز.

قلت كلما نظرت فى جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالا اذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهباً . واذا خطبوا بها سطرت عجبا . ولوشئت أن أعد منهم عددت كثيراً هؤلاء أصحاب المقتطف ودائرة المعارف والضياء والهلال والجامعة وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها ولكنني كلما نظرت فى جالية السوريين من المسلمين لم أر بينهم غير البائع والسمسار . ورائض الخيل والجزار . فماعلة ذلك التفاوت العظيم والقوم يسكنون فى فرد اقليم .

قال علة ذلك وهم رسخ فى نفوس المسلمين أن لا يدخلوا أولادهم

فى مدارس المسيحيين . ففاتهم بذلك تحصيل العلم ومات أكثر نفوسهم بحياة ذلك الوهم .

قلت لقد أمنت بحمد الله نفوسنا من دخول ذلك الوهم فأرسلنا من مصر فى هذا العام الى كلية واحدة من كليات المسيحيين ببيروت مائة وخمسين تلميذاً

قال لقد سلمت نفوسكم من الاوهام . وأصيبت عزائمكم بانواع السقام . أليس من العار أن تكونوا أكثر مالاً وأعز نفراً ولا تجدوا في مصر لتعليم أولادكم مستقراً وليست بيروت باخصب من عروس النيل أرضاً . ولا باوسع من ملك مصر طولاً وعرضاً . أيعجز فى مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ويظفر عشر معشارهم فى بيروت بنيل تلك الامنية .

ثم أمسك عن الكلام وأخذ فى تسبيحه فاخذت بيد صاحبي وانطلقنا فى سبيلنا راجعين . ولما بلغنا قصر النيل تياسر صاحبي وتيامنت حتى اذا بلغت الدار . وعاودتنى تلك الافكار . قضيت الليلة على نحو ماقضيت به أختها السابقة ولبثت بالمنزل الى وقت التطفيل ثم دعانى الموعد الى المسير فركبت نعلى . وأعملت قدمى ولكن كان النهار أسرع منى مطية وأحث سيراً . فادركنى الظلام

قبل أن ادرك المقصد فنبهت العزيمة واحتثت الأقدام حتى بلغت المكان المعهود وقد أجهدني السير وكدني النصب فاذا فيه انسان ينوح من فؤاد مقروح فقلت ماخطبك أيها النائح فقال وهو يشرق بعبراته . وأنفاسه تتوقد بزفراته . ومن يا ترى أولى مني بالبكاء . وقد اقصدني بسهامه القضاء . كان لي أخ أسكن اليه وأعتمد بعد الله عليه . اذا أملقت واساني . واذا تربت أعطاني أنام للمرض ويسهر عليّ وامشي للغرض ويجري بين يديّ فمازلت مكفي المؤونة بكدحه . غنيا عن المعونة بنصحه . حتى انتويت به منذ عام . غاله رميّ بمديته . وحرمني من حسن طلعته . بقر بطنه . وحضر دفنه . وحالت بيني وبينه حماية قومه

قال الراوي : ثم أمسك الحزن لسانه واسالت الذكري نفسه فمازال بين الزفرة والشهيق حتي أشفقت عليه أن يذوب كمداً فاقبلت انفّس عنه بسرد العظات وأدعوه الى الاخذ بالتأسي حتى رقأ دمعه . وهمدت نار أحشائه . ولما تماسك بعض الشيء أنشات أقص عليه خبر سطيح فارتاح الى لقائه وقد حان الوقت فقمنا اليه واذا به يقول

واجد موتور . وساهد مقهور . قد واصل النواح في الغدوّ والرواح . على دم هدر وأخ قبر (اى فلان) مادام امتياز الجانب .

الرومىّ يطعن بمديته . ويستظل بعلم دولته . والمصرىّ يحمل القتيل . ويخضع خضوع الذليل . كانما دية القتيل المصرى . كرامة للقاتل الرومى كما قال شاعركم

وهل فى مصر مفخرة ... سوى الالقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا ... بمال غير مكتسب
وفي الرومى موعظة ... لشعب جد فى اللعب
يقتلنّا بلا قود ... ولادية ولا رهب
ويمشي نحو رايته ... فتحميه من العطب
فقل للفاخرين أما ... لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلا ... ركينا واضع الحسب
أرونى نصف مخترع ... أرونى ربع محتسب
أرونى ناديا حفلا ... بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم ... من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم ... من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم ... سوى التمويه والكذب
حصائد السن جرّت ... الى الويلات والحرب
فهبوا من مراقدكم ... فان الوقت من ذهب

فهذي امة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

ولو شاء لابس الرداء الأحمر. لدفع عنكم هذا الهواء الأصفر. وأمتعكم بالحياة فى أعطاف العيش الأخضر ولكنه تركككم نهباً للامتيازات . وغادر صدوركم ميدانا للحزازات . حتى تسأموا حياة الاذلال . وتسكنوا الى رجال الاحتلال . ولا تجدوا لكم من وقاية فى غير طلب الحماية وهنالك تتساوى الاقدام وينشر فوقكم علم السلام. وهذا من دهاء القوم وسياستهم . وحذقهم فى الامور وكياستهم وكما أن لكل أمة قسمتها من الفضيلة فلهذه الأمة قسمتها من الحزم وحصافة الرأى وبعد النظر فى العاقبة وما اجتمعت هذه الخلال فى أمة إلا وكانت خليقة أن يتناول حكمها سكان الكواكب لا هنود آسيا وزنوج افريقيا

وهم اهل سياسة وختل وقد بلغوا من كليهما كوكبيهما أما سياستهم فهى أشبه شيء بالكهرباء تدرك العين فعلها ولا يدرك العقل كنهها . يعنعنونها ويحكمونها ويطلونها بعقاقير يعرفونها ثم تزف الى الناس فلا والله ما ينفذ فيها ذكن [1] الفطن ولا يحيط بها دهاء

---

(١) الفراسه

الحوّل[١] فلولا التقى لنحلناهم[٢] علم الغيب وأماختلهم فبيناً هم ضعاف يغضون للخطب اذهم أشداء ركابون للهول فهم أشبه شيء بالخمر ضعيفة فى الكاس شديدة فى الرأس . ولهم نظر يشف له كل شيء كأنما قد جمعت أشعة راتنجن من أشعته وارادة سخر له البخار فى البحار كما سخر الريح لسليمان وهم اذا دخلوا قرية جعلوا أعزة أهلها أذلة وكان لهم فى اجتذاب ثروتها كياسة الاسفنج فى اجتذاب الماء مع ذلك الرفق والسهولة .

ولما دخلوا مصر دخول الشتاء على الشجر (وياليت طريقهم كان على وادى التيه يوم دخولها) اذا أهلها فريقان فريق نظر الى مساويهم بعين الارمد فملأ ماضغيه بمحاسنهم فكان مثله واياهم كالظلام والنار يخفى دخانها ويبدى سناها وفريق ركب متن الغلواء فى ذم افعالهم حسنة كانت أوسيئة فكان مثله واياهم كالانسان والزمان لايشكر اذا اقبل ولا يصبر اذا أدبر ...

ومن تامل فى رقعة شطرنج الشرق ورأى اليدين اللتين تجولان فيه وعلم أن الاولى تديرها الاناة السكسونية وأن الثانية تحركها الخفة الفرنسية حكم بالفوز للتى يجب أن يحكم لها به كل من فرّق

---

(١) الداهية الخبير بتحويل الامور (٢) نحله الشيء عزاه اليه

بين عاقبة البدار تخالطه الخفة وعاقبة الريث تخطئه الغفلة

ثم أمسك عن الكلام واخذ فى ماكان فيه فأنصرفت بصاحبي وجعلت أتحرّى مسرّته وأتوخى تسليته حتى بلغنا حيث نفترق فعطفت يمنة وعطفت يسرة وما أنا إلا أن خطوت في طريق بعض الخطوات حتى لمحت شيخين يمشيان على مهل فقلت أدانيهما فلعلى أسمع منهما ما يذهب بذلك الهم الذى حملته من حديث صاحبى الموتور فأسرعت الخطى حتى سرت على مسمع منهما فاذا أحدهما يقول للآخر لقد أفاض الفلاسفة فى تعريف السعادة وتفننوا فى تصوير اللذة ولكنى لم أجد فيهم من نفذ فهمه الى حقيقة ذلك التعريف. جهلوا أن السعادة كل السعاده. فى شياخة السجاده وأن أسعد الناس حالا. وأرخاهم بالاً. جالس فوقها. يجرى رزقه من تحتها. فهى الجنة التي تجرى من تحتها أنهار النذور والكنز الذى لاتفنى ذخائره أمد الدهور.

وأسعد من هذا الحي ميت يسخر له لله من يبنى على قبره قبة عاليه. ثم يدعو الناس الى التبرك بتلك العظام الباليه فتجيء سعادته فى مماته. على قدر شقائه فى حياته. وتطير بذكر كراماته الانباء. وتحسده على تلك النعمة الأحياء حتى يقول فى ذلك قائلهم

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات

من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على احجارها الصلوات
يسعي الأنام لها ويجرى حولها بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضي بها الحاجات

قال الثانى : لقد صدقت فى تعريفك . وأنصفت فى وصفك . ولكنى أعرف للسعادة منهجاً آخر قد سلك فيه بعض الأقوام . فأصبحوا أسعد الأنام . ألم تعلم وفقك الله ان السعادة كل السعادة فى الوصاية على اليتيم . وفى النظارة على وقف حبس على العظم الرميم . يأكل الأول ماشاء ولا محاسبه . ويلتهم الثانى ماأراد ولا مراقبة .

وانى أعرف فى مصر قوما قد احترفوا الوصاية على الأيتام فهم كلما حدث يتم بالبلد رشحوا أنفسهم لتلك الوصاية وعملوا جهدهم للوصول الى هذه الغاية .

قال صاحبه صدقت ياأخي ولكن أتعرف السعيدة من النساء كما عرفت السعيدة من الرجال .

قال السعيدة من النساء من سهلت لها الأقدار فأصبحت تدعى شيخة الزار فهي تملأ يديها ذهبا . وبيتها نشبا . وترفل فى الحرائر . من هبات الحرائر . ورأس مالها فى تلك التجارة رقية باسماء بعض العفاريت الطياره . تدخل على المقصورات فى القصور . والمخدورات فى الخدور . فتفتق

بطبلها طبل آذانهن. وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن. وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن . حتى اذا امتلكت منهن الوجدان . وصار لها عليهن أى سلطان. حكمت فيهن حكم المنوم البارع. على النائم الخاضع.

ولما انتهيا من تعريف السعادة وانتهيت الى دارى غادرتهما يضعان من تعاريف الاشياء مايرسمه لهما الخيال وتملى عليهما الآمال. فدخلت الدار وروحى مجروحه بشكوى ذلك الموتور فما زلت أفكر في آلام الشرقى. وشقاء المصرى . حتى ضاق الصدر. وعزب الصبر فقمت الى ربيع الأرواح ومسرح النفوس وأعنى به اللزوميات فطويت بفتحه كتب الأوهام . ومحوت بسطوره سطور الآلام. وجعلت أطالع حتى تبينت الخيطين . وميزت ما بين الفجرين فحن الجنب الى المضجع ومالت العين الى الهجوع فنمت ماشئت وانتبهت وقد اكتهل النهار فأصلحت من شأنى وخرجت وأنا على غير عجلة من أمرى لفسحة الوقت وبعد ساعة اللقاء فمشيت مشية المتفرج حتى بلغت المكان المعهود فاذا فيه انسان تنطق معارف وجهه (١) عن عما أنحت عليه ضلوعه من سأم العيش وضجر الحياة فدانيته وحييته فرد التحيه بأحسن منها فقلت له مالى أراك هكذا كاسف البال . سىء الحال .

---

(١) تقاطيع الوجه

ومالى أرى فى عينك أثر البكاء : وألمح على وجهك غبار الشقاء فقال وهو يخفى من شجونه ويغيّض من شؤونه

إنى امرؤ خفيف الحال ثقيل الاعباء رزئت بفقد أبي قبل أن أبلغ الغاية التى اليها مدى أملى وأمل الأهل والأقارب فانقطعت عن الدرس فى مدارس الحكومة لقصر يدى عن بلوغ نفقة التدريس التى اشتطت فيها فأصبحت عيالاً على أهلى ولبثنا نعيش جميعاً من فضلة كانت لنا حتى أمسينا ذات ليلة ولم نجد مانستصبح به فى الظلام فكرهت أن أجمع عليهم بين خفة الحال وثقل وجودى بينهم فخرجت أقصد وجوه الرزق لعلى أصل الى عمل أكسب منه ماأدفع به عنّى شرّة العوز وذلة السؤال فأخطأنى التوفيق لأننى لم أكتب من أهل الشهادة فما زلت أنظر فى وجوه الأعمال وأتبصر فى أيها أقل مؤونة وأكثر ربحاً حتى فتق لى الذهن ان القى بنفسى فى غمار المحررين وان أنشيء صحيفة أسبوعية فصحت عزيمتى على الدخول فى زمرة الكتاب وان لم اكن منهم واقدمنى على ذلك ماأراه كل يوم من تراخى الناس على احتراف تلك الحرفة وغفلة أهلها عن الذود عنها حتى عبث بها الدعيّ وغض منها اللصيق ولما طوّعت لي النفس ذلك أصدرت الصحيفة وجعلت اكتب فى الفضيلة وأدعوا الناس الى الأخذ بها وأستعين بما

سطره الاول وجرى عليه الأخير واستمد من بطون الكتب احكم الامثال وامثل العظات واكد ذهنى فى الاستنباط وأنصب بدنى فى السعى وأغشى الادباء فى دورهم فأطلب الى هذا مقاله فى الادب والى ذلك كلمة فى الفضيلة حتي فاضت أنهار الصحيفة بالنصائح وجرى تيارها بالملح والطرائف ولكن فاتنى أن أنظر نظرة فى أخلاق الامة التى اكتب لها وأن أجول بالفكر جولة فى وجوه عاداتها فلم تنفق لذلك سلعتى . ولم تنتشر صحيفتى فجعلت أبحث عن علة ذلك الكساد وعدم تنفيق تلك السلعة حتى اهتديت بعد كد القريحة الى أن ذلك راجع الى فساد الأخلاق وان العامة قد نامت عنها وعاظها فيبس ما بينها وبين الفضيلة وأخصب ما بينها وبين الرذيلة وذكرت قول ذلك الشيخ الحكيم « هلاك العامة فيما ألفت » فوددت لو اننى كنت من رجال العلم وفرسان البيان فأشن الغارة على تلك العادات والأخلاق وأشك باليراع اضلاعها حتى أراها تأنق لغير المجون وتأبه لغير السباب ولكن حال بينى وبين ذلك قصر فى الباع . وجفاف فى اليراع . وخلة (١) اشكوها وحياة استمرها (٢) فقلت لنفسى أيتها النفس لقد أعذر (٣) صاحبك وما قصر فأنت اليوم بين أمرين اما الفضيلة

---

(١) الخلة الفقر (٢) استمر الشيء اذا وجده مرا (٣) اعذر الرجل اذا جاء بالعذر

والنعش. واما الرذيلة والعيش. وكانت من غير تلك النفوس المطمئنه. التى بشرها الله بالجنة . فشمست [١] عن الأولى وسكنت الى الثانية فمازالت تأمرنى بالسوء حتى اصبحت صحيفتى مجموعة للنقائص ومستنأما للعيوب وأصبح يراعى وقد استمد من لعاب الافاعى لعابه. واستعار من كتاب المسامير سبابه فما زالت أطعن على زيد لاجتعل [٢] من عمر وأغض من خالد لاشد من بكر حتى زل الرأى وعثر القلم فاصبحت غريم الحكومة وخوصمت الى المحاكم فامسيت مخصوماً [٣] وبت وقد اصطلحت علىّ الخطوب . وطولبت بالتفكير عن الذنوب . بان أدفع عشرة ذهبا . واتخذ لى غير الصحافة سببا. ومن اين لى أسعدك الله ان أقوم بدفع هذا القدر من المال ولقد كنت كلما هممت بطبع الصحيفة أجمع من كل جيب من جيوب المشتركين قرشاً كما يجمع العامل فى المطبعة من كل بيت [٤] حرفا

لذا ترانى ضيق الصدر لضيق ذات اليد ولقد اعطيت الله عهداً ان انا خرجت من هذا المحذور كفافا لاحطمن هذا اليراع العاثر ولأنبذنّ تلك الحرفة التى اضطرتنى الى التحام الاعراض والميل

---

(١) شمست أي نفرت (٢) أخذ الجمل أو الجمالة

(٣) مغلوباً في المخاصمة (٤) البيت هنا بمعني الخانة

مع الاغراض ثم رفع يديه ضارعا الى الحق وقال اللهم ان كنت تعلم انني دخلت فى هذه الحرفة كارها وسرت فى تلك الطريق مغلوبا على أمرى فنفس كربتى وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين

فقلت له وقد ادركتنى رحمة عليه أرك قدخاصمت نفسك الى نفسك فحمدت مغبة الخصومة ورضيت حكومتك عليك فلا تجزع بعد ذلك فانه لاشىء أمحى للخطيئة من التوبة يظهر أثرها فى نفس الخاطىء وأنى أرى فى نفسك وأتبين فى وجهك أثر ماضيك ولا أعلم فيما أرى شيئا هو أبلغ فى النفوس من يقظة الوجدان وحياة الشعور فان كنت قد صدقتنى فيما قلت وكان لسانك شاهداً عدلا على قلبك فأنت حقيق أن لاتعود الى ماأوضعت فيه من الجهالة وخليق ان لايفت فى ساعدك ماوصل اليه أمرك من الفشل فلايكبرن عليك أمر الغرامة فماهو ببالغ من نفسك مابلغته أنت منها وهلم بنا الى سطيح يحدثك بمأتى حالك ثم حدثته حديثه فلبث ينتظر معى الآية فلما لاحت أخذنا طريقنا الى سطيح واذا به يقول :

ظالم مظلوم . ولائم ملوم . تزيى بغير زيه . واقام فى غير حيه. فاصابه ماأصاب الشرقى. وقد نزع الى تقاليد الغربى فأصبح معنياً بهذا البيت . وأحسبه من شعر الكميت

فياموقداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطبا فى غير حبلك تحطب

أى فلان ان للصحافة رجالا وللسياسة أبطالا طرّقوا (١) لها الى الضمائر . وتناولوا بها ماوراء السرائر . فسددوا الكلام كما تسدد السهام . وبلغوا بالمقال . مالا تبلغه النصال يعجبونك (٢) فتعجب . ويستغضبونك فتغضب . فهم ملوك الافكار ينقشون فى النفوس . ما نقشوا فى الطروس . ويودعون فى الصدور . ما اودعوا فى السطور وهم كما قال صاحب كليلة (يحقون الباطل ويبطلون الحق كالصور الذى يصور فى الحائط صوراً كأنها خارجة وليست بخارجه وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) فأين أنت من رجال اذا استلوا أقلامهم ثلوا العروش الراسية . وأذا ارسلوا بيانهم عطفوا القلوب القاسية تجرى على أسنة أقلامهم أرزاق اليائسين . ونسبح فى قطرات مدادهم آمال الراجين تبتدر الاسماع مايقولون . وتنهب الابصار مايكتبون فما انت ياولدى فى الرأس منهم ولا الذنب . ولا علمك من ذلك العلم ولا أدبك من ذلك الأدب . ولكن تأنق الشيطان لك فى تزيين الضلال : والقى فى أمنيتك ان تصبح من رجال هذا المجال. فساقك الى نحسك ونكسك ووجد له منك معينا على نفسك . فأخرجت للناس

---

(١) جعلوا لها طريقاً (٢) يطلبون منك ان تعجب

تلك الصحيفة . ثم جعلته لك فيها خليفه فما فتىء يملي عليك . وهو جاثم بين كتفيك . حتي أصبحت أشد سواداً من صحيفة أبي لهب وأظلم ممن افترى على الله الكذب . فاتعبت الكرام الكاتبين وأحرجت الكتبة الراشدين . وشد منك اقبال العامة وسكوت الحامه . وشاركك القارىء في آثامك . وافتتن المصرى بكلامك والمصرى مفتون . يحب الهزل والمجون فهو أين حل . له ولىّ من الذل . وأين كان له قسطه من الهوان . قد سكنت فى نفسه الهيبه واقترنت بأعماله الخيبه تلك التى استعاذ منها السليك العداء . حين دعا به بذلك الدعاء ! اللهم انك تهيىء ماشئت لمن شئت . اللهم انى لو كنت ضعيفا لكنت عبداً ولو كنت امرأة لكنت أمة اللهم انى أعوذ بك من الخيبة . أما الهيبة فلاهيبة . وكذلك أنت قد خاب أملك . وخانك عملك . وتعذر عليك التماس الخلاص . وحق عليك بما قدمت يداك القصاص

ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبي انى أتيت تائبا وفى الحق راغبا . وماكنت لولا الحاجة بخابط فى تلك الضلالة لولا اننى رأيت القوم يركبون تلك الطريق فركبت مركبهم واقتفيت أثرهم ولاعلم لي بخشونته فما زال يستتيهنى فيه الشيطان حتى ضللت

مع الذين ضلوا من قبل وماانا فى ذلك بأول الخاطئين

قال سطيح أما اقتفاؤك آثار القوم : فانت فيه الحقيق باللوم. فما الذى غبطت من حالهم حتى اقتديت باعمالهم أعلى الكدية والسؤال . وفيهما ذل الرجال ؟ أم على السجن وفيه يقرع السن ؟ أم هاجت حرصك تلك الاتاوه . التى ضربوها على أهل الغباوه. فاصبحت حُمَدَةً (١) لمن أعطي وان كان لئيما . لمزة (٢) لمن منع وان كان كريما . وأما اعتذارك بالحاجه والأملاق . فى الهبوط الى تلك الأخلاق . فعذر يدفعه الواقع . ولا يستأذن له على المسامع . فكم فى هذه العشرة الملايين . من صاحب حاجة أومسكين . فمالهم لم يشاركوك فى أمرك . ولم يعتذروا للناس بعذرك . فان قلت أنهم لا يحسنون التحبير. ولا يتقنون التحرير. فكلكم سواسيه . فى البحر والقافيه . ليس منكم رجل رشيد . ولا فيكم كاتب مجيد . ولكنهم علموا أقدارهم . فلم يتعدوا أطوارهم . وجهلت قدرك . فتعديت طورك. وأما التوبة التى تزعم انك تبتها . وبالندامة على مافرط منك اتبعتها . فهى ان كانت نصوحا . فقد بلغت بها ثمنا ريحا . ولا تلبث

---

(١) الحمدة الذي يبالغ فى حمد الناس بماليس فيهم

(٢) واللمزة الذي يسعى بالنميمة فى الناس

ان تقفك على سبيل الكسب من الحلال. وتحرف بك عن طريق الغيّ والضلال .

ثم انقطع الصوت فقلت الا يحدثنا ولىّ الله عن تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها فذهبت فيها الظنون مذاهبها وركبت الأوهام مراكبها ثم أسكنوها فى غير مغناها وأرادوا منها غير ما أرادت منهم فذلت بهم وذلوا بها وكان ذلك علة هذه الفوضى التى تراها فى الصحف وذلك الفساد الذى سرى فى الاخلاق ولولاها لما هبط ذلك الواقف بجانبي الى حالة تلك من سوء المنقلب وشر المصير

قال عن الحرية سألت . وعلى الخبير سقطت . اعلم ياولدى انها معنى الوجود وملاك الحياة ففى فقدها سجن النفوس وعقال العقول وقيد الافكار وما امتحنت أمة بمحنة هى أقتل لها من فقد الحرية وخمود الشعور وأنى أراكم على ما انتم فيه من الضعف والتقاطع قد أمتعكم الله بحرية الحياة فامسيتم تتقلبون فى نعمة لم تعرفوا لله حق الشكر عليها

اذا ألف الشيء استهان به الفتى ولم يره بؤسى تعدّ ولا نعمى
كأنفاقه من عمره ومساغه من الريق عذبا لا يحس له طعما

ألا تنتشرون فى الارض فتنظروا حال غيركم من الامم الاسلامية التى سلط الله عليها ماسلط عليكم . تالله انكم لتجدونهم بحسرة النظر الى ابتسامة من ثغر تلك العروس التى جلاها لكم الاحتلال فجهلتم قدرها . ولم تدفعوا مهرها فلما علم منكم ذلك أقام لكم مكانها عروسا من الشمع يحاول ايهامكم بوجودها كى تخدعوا بالنظر اليها كما خدعتم نيلكم من قبل بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين

فكان مثلكم فى ذلك مثل السجين فى مكان غاب سجانه وفتح بابه فهو كلما هم بالانفلات من ذلك السجن نظر فى رجله قيدا من الخوف ولمح على الباب حارسا من الوهم أف لكم لقد من الله عليكم بقسم من الحرية لو قسم على المسلمين فى الارض لوسعهم فخرجتم به عن أفق الحرية الشرعية ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية بل رسمتم للحرية تعريفا أنكره الشرع وتسخطت له الفلسفة

عرفها الاول فقال انها تكون فى حفظ الدين والعرض والشرف والمال واوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف فقال هى أن يكون المرء حرا فى عمله ورأيه على شريطة ان لا يدعو ذلك الى أذى غيره . فما اعجبكم الاول ولا راقكم الثانى على مافيه من التسامح

بل زعمتم ان تعريفها الشافى هو ان يعمل المرء ماشاء ان يعمل ويرى من رأى ماشاء ان يرى وأن سبيله فى ذلك أن يسطرد به جواد الأرادة المطلقة فى ميدان الشهوات لايبالى داس به آداب ذلك المجتمع الانسانى أم تخطى أعناق الفضائل

قلت قدعلمت ان الذى نحن فيه لم يكن من الحرية فى شيء فما رأى ولى الله فى تلك الصحف التى باتت تنبح بغير فرقان على صاحب الدار والغريب . وتقرض بلا مبالاة عرض البعيد والقريب أيرى فى وجودها ضرراً محضاً او منفعة خالصة أم هى كالخمر فى حاليها قدجمعت بين الاثم والمنافع . فوجودها بيننا ضار نافع

قال سطيح لقد نظرت قبل اليوم فى هذا السؤال وتبينت فيه الهدى من الضلال . فألفيت فيها شراً قائماً وخيراً جاثماً فرأيت أن أزن الاثنين . فلما حملتهما الى الميزان ونظرت فيه بعين العرفان شالت كفة النفع والخير . ورجحت كفة الشر والضير

فقلت زدنى بارك الله فيك . واسمعنى تأويل ذلك من فيك

قال اعلم انه مامن شيء الاوفيه منفعة ترجى ومضرة تخشى أما وجوه النفع فى بقاء تلك الصحف فهي عديدة الا انها لاتكاد تتجلى لغير علماء العمران . والباحثين فى ترقية شؤون بنى الانسان

فمنها ان فى بقاء تلك الصحف على الحال التى هى عليها عنوانا على وجود الحرية فى البلاد التى تنشر فيها فاذا قدم عليكم قادم وقرأ مايكتب فى تلك الصحف كائنا ما كان علم انكم تتقلبون فى نعيم الحرية . وان جهلتم انتم قدر هذه المزية

ومنها أن فيما تكنيه مزدجراً للناس فانك لتجد من الموضوعات فى تلك الصحف الصغيرة . مالاتجد بعضه فى أمهات الصحف الكبيرة هذه بما فى نفسها تصرح . وتلك لاتكاد به تلمح . تكتب الاولى مايقع للغنى والفقير . وتسطر مايحدث للكبير والصغير . وتابى الثانية الاان تراعى المقام وتحجم فيما يقع من الحوادث عن الكلام . امالصلة تمنعها اولرهبة تقطعها

ومنها انتشار اللغة فى الجملة بانتشار تلك الصحف فانك لاتعدم أن تجد فى صحائف الاسبوع أسلوبا رقيقاً ومعنى دقيقا يعز وجودهما فى صحائف اليوم لاشتغال أهلها بتسقط الاخبار وضيق وقتهم عن التأنق فى الاساليب . والتماس الشائق من التراكيب . اما اصحابنا فلهم من فسحة الوقت مايكفى لانتقاء اللفظ واختيار الموضوع فاذا شاءوا المدح عرضوا الفاظ اللغة ونبشوا بطون الكتب وقلبوا أحشاء القواميس ثم استخرجوا من الالفاظ

أحلاها وأطلاها . ومن المعانى أسماها وأغلاها . وصاغوا من كليهما مدحة تهز الممدوح هزاً وتبز منه المال بزاً . وهم اذاخلوا الى شياطينهم وارادوا القدح فقل أعوذ برب الانس والجان . من شر ذلك اللسان

أما وجوه المضرة فى بقائها فقد اصبحت شيئا يحس وأصبح مثلها كمثل الهواء فقد كنا نشعر به ولا نراه حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى همت الايدى بلمسه وتلون حتى وقع من النظر تحت حسه .

فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال فأقاموا لها سوقا فرشت فيها الصحف وركزت الاقلام وعرضت للبيع أعراض الناس فتراهم يجلسون للمساومة فى تلك الاعراض ويأنى حامل الضب (١) لأخيه فيساومهم فى تمزيق عرض من أراد ويشهر ذلك فى المزاد

ومنها دبيب الفساد الى اخلاق العامة لكثرة مايقرأون ويسمعون من الفاظ السباب واذا فسدت الاخلاق فى امة فقد فسد فيها كل شيء

ومنها دخول السقاط من القوم فى زمرة المحررين اللهم الا نفر

(١) حامل الضب اي حامل الحقد والضغن

من أنصار الفضيلة ذهب صرير أقلامهم ضياعا فى وسط تلك الضجة القائمة وهذا قليل من كثير فانصرف ياولدى الآن فقد قطعتنى عن ذكر الرحمن

فانصرفت بصاحبى وقد أخذت منه العظة وتمشى فيه الاعتبار حتى اذا بلغنا حديقة الحيوانات قلت لصاحبي هذا قصر اسماعيل الذى يقول فى وصفه صاحب عيسي بن هاشم

وصلنا الى قصر الجيزة ومتحف الآثار . وملتقى السيارة من سائر الاقطار فرأينا روضة تجرى الانهار من بينها. كأنها الجنة بعينها وقصرا يقصر عنه الطرف. كما يقصر عنه الوصف فاخذنا نرتاد خلاله. ونتفيأ ظلاله . وقد نظرنا الاسود مقصورات فى المقاصير. والأساود مكفوفات فى القوارير ورأينا النمور . فى الخدور . والرئال . فى الحجال. والذئاب فى القباب. والظباء فى الخباء. ولما رأى الباشا الارض منضدة مرصعة مزرده . حسبها أرضاً مفروشه . ببسط منقوشه . وأشكل الامر عليه . فهم بخلع نعليه . فقلت له طريق معبد لا فرش منجد . وحصباء ومرو . لا بساط وفرو . قال لمن هذه الجنان وكيف يسكنها الحيوان . وماعلمت أن الأسد الضوارى تسكن مغانى الجوارى . وان ساكنات البيد . تلعب فى ملاعب الغيد. فقلت

بيت اسماعيل طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ودرجاته منازل للاقدار . كان اذا نادى صاحبه ياغلام شقيت أقوام وسعدت أقوام ولبى نداءه البؤس والندى . بأسرع من رجع الصدى . هنا كان يفصل الامر ويحكم . وينقض الحكم ويبرم . وكان من احتمى بظل هذا الجدار . تحامته غوائل الاقدار . هنا كانت فرائد القلائد . من أجياد الخرائد تختلط بمنثور أزهاره فترصع لجين أنهاره . هناكانت تتناثر الجواهر من قدود الحسان . فتشتبه بأثمار الأغصان . هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد . فتجاوبها الورق على الأفنان والاعواد . فأصبح حديقة عامة . وموطئا للخاصة والعامة . واصبحت أرضه تكترى . وجنى أشجاره يباع ويشترى . ودوى فيه صياح النسور وزئير الاسود . وعواء الذئاب وهمهمة الفهود . وزال ما كان فيه من عز وطول . ومجد وصول . وايد وحول . وصدق الكتاب فحق القول

فى هذا الدار فى هذا المكان على

هذا السرير رأيت الملك قد سقطا

وقصصت على الباشا قصة صاحب القصر . ومليك ذلك العصر . وماكان فيه من الجد الصاعد . والبخت المساعد وماصار

اليه من نحوسة سعده ثم سكنى لحده هم وبعد أن ذاق فى هذه الدار
دار الفناء . مثل عذاب تلك الدار دار البقاء

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغمهم فاذا النعماء بأساء

وما انتهيت من هذا الحديث حتى انتهينا الى حيث تفترق فقصدت دارى وقصد داره ولكننى استشعرت بعد فراقه ميلا الى السهر فعطفت على أحد الاندية وانتحت ناحية وجلست وما كاد يحتوينى المكان حتى طلع على النادى ثلاثة من الشبان شممت من أرداناهم أوج الحسب والنسب وعرفت فى وجوههم نضرة النعيم فدخلوا وهم كانهم روضة تمشى وجلسوا وماشككت فى أنهم من أقران الثريا وكانوا بحيث أسمع مايقولون ثم صاحوا بالخادم فاقبل مهرولا فتقدموا اليه بطلب كاسات الراح فانطلق يعدو وملأ الاريثما عاد يحمل كؤسا من البلور ملؤها ذهب سائل أو للنيل جامد فصففها أمامهم وحفها بأطباق النقل وطاقات الزهر وقلت فى نفسى لقد أرانى فى حان وماكنت لأعد نفسى من أهلها فهممت بالانصراف ولكن أمسكنى حب الاطلاع على ماسيكون من أمرهم ومايدور من الحديث بينهم فلبثت أسمع وأرى واذا بهم قد استرسلوا فى الانس وتبسطوا على السرور وكانوا كلما أفرغوا

كؤوسهم امتلأت نفوسهم طرباً وتهللت وجوههم فرحا فما زالوا يستحثون الكؤوس الى أفواههم بحادى الغناء حتى خلعوا رداء الأنفة وطرحوا مطارف الاحتشام فقام أحدهم وقد علت الخمر ذؤابته ورنحت أعطافه وقال أخشى أيها الصاحبان أن تميل علينا هذه الصفراء بخديعتها وختلها فنقع فى مثل ماوقع فيه ذلك الشاعر الفارسى الذى يقول . مازلنا نشرب الخمر حتى بحنا بأسرارنا فلما رأت منا ذلك أشفقت على نفسها من أن نبوح بسرها فامسكت ألسنتنا . فاجابه أحد صاحبيه وما عساك تخشى منها فهب أنها دبت منك الى موضع السر فهل لك دوننا سر تطويه . أوشىء تخفيه . قال كلا فانني لم اكتمك من صحبتك شيئاً من أمرى اللهم الا واحدة

[illegible] قال وماعسى تكون . قال إنى أغبطك على أبيك وأتمنى أن [illegible] فيه فى موضعك . قال صاحبه وقد عراه الدهش وما الذى غبطت منى حتى بلغ بك الامر إلى التمنى ولا أراك دونى فى شىء من الاشياء فأنت بحمد الله فى بشاشة من العيش ورخاء من البال .

قال تعلم أن أبى مدير وأن أباك مستشار بمحكمة الاستئناف قال علمت ذلك وما غاب عنى أن أباك أعلى من أبى منصباً . وأكثر مرتبا . ينقد أبوك فى كل شهر مائة ذهبا وينقد أبى دون ذلك

قال أراك تداجي فى القول . وتتغابى عن الفهم وأنت تعلم انه ما منّ الله على خلقه بنعمة هى أولى بالشكر وأحق بالذكر من نعمة الأمن فقال تعالى معدداً آلاءه على قريش (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) فجعل سبحانه الأمن من نعمته الكبرى ومنته العظمى فمن بات منا آمنا فى سربه كان حقيقا أن لا يغفل طرفة عين عن الشكر

وأبوك ينام ملء جفونه لايبالى أقبل المستشار أم انعقد مجلس النظار فقد تخطاه العزل . واخطأته عاديات النقل أما أبى فهو على منصبه الكبير . وأجره الكثير . يلبث الليل والنهار . فى خوف من المستشار . حتى أن أمثاله من المديرين الذين لم تشرق عليهم الشمس فى بلد الا وتغرب عنهم فى آخر ليتركون أثاث منازلهم ورياشها مطوقة بالحبال لكثرة ما يؤمرون بسرعة التحول والانتقال . لذلك ترانا لا نحل فى بلد الا ونحن من أمرنا على سفر . ومن غضب المستشار على حذر . كأنما عنانا ابن الوليد بقوله

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة مخافة الدهر أن يؤتى على عجل

هذا بعض مانحن فيه أفلا أغبطك بعد ذلك . وأتمنى حالا كحالك

ثم انتشر بعد ذلك عقد المجلس فمضي كل لوجهه وغادرت المكان

على أثرهم وتيممت دارى فلبثت فيها حتى حان الموعد فخرجت وما زلت أمشى حتى اشتمل علىّ الليل . وأسمع صوتاً فاتسمته فأرى صديقاً لى يتغنى بشىء من الكلام المقفى الموزون فاجلس على كثب منه وهو لا يرانى وقد شجانى حسن صوته وكاد يلهينى عن الموعد لطف ايقاعه فألبث حتى يأتى على نشيده ثم أتراءى له فأحييه وتنبسط على الحديث فاسأله لمن الشعر يافلان قال هو بعض ما أعبث به قلت لقد أسمعتنى منذ الليلة كلاما لو نحلته ابن أوس ما شك سامعه فى أنه من مختاراته فمالك تكتم الناس مثل هذا الشعر السرى ولو أنك أذعته لغضضت به من كثير من أولئك الذين باتت تطن الصحف بذكرهم قال ليس من أمرى المديح ولا سبيل الى أذاعته فى تلك الصحف اذا أنا لم أسلك به فى تلك الطريق قلت فان أعياك الامر فمالك لا تجمعه فى ديوان ثم تخرجه للناس كما يفعل الشعراء ممن هم دونك فى منازل الأدب ومراتب القريض قال كان يكون ذلك حقيقاً بى لو ان من يقرأ الأثر فى مصر يقرأه لذاته لا لذات صاحبه ونحن بحمد الله فى بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف حتى اذا ظهر أثره في الناس قامت تقرظه بصنوف المديح والاطراء وتنزل نفسها فى الدعوة الى كتابه

منزلة أولئك المبشرين فى الدعوة الى دينهم

فلو بعث اليوم صاحب اللزوميات وحاول أن ينشر فى تلك الصحف حرفا مما أخذه على الامراء وأنكره على الكبراء لأبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكانا بين جداول الأموات فضلا عن جداول الاحياء ألم تر اليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت الى صاحبها من الالقاب ما تعجز صحف الاستانة عن اسناد بعضه الى جلالة المتبوع الاعظم وقد أدى فريضة الجمعة أو تحركت شفتاه بالانعام على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام

بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من المعجزات اللهم الا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغريبة التى ما سكنت فى مغنى عربى الا وذهبت بروائه

قلت حسبك لا تغضض من شاعر الشرق ولا تنتقص من أدبه فتالله انه لظريف الوزن لطيف القافية خاطره طوع لسانه . وبيانه أسير بنانه . كانما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه الا انه مكثار وقل ان يسلم المكثار من العثار فشعره كما قال الاصمعي فى شعر ابى العتاهية . كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب

قال انى لا أرى رأيك فيه وفي مصر من لو انقطع لصناعة

الشعر لوسع الناس احسانه فيه ولكن قد ثنى الله عنان الكثيرين عنه اما الشرف يخشى عليه ان يغض منه واما لاشتغال بشؤون للحياة لاتقوم الحياة الا بها وصاحبكم بفضل ماهو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره فالعجب أنه لايجيد وأعجب منه أن يقال انه مكثار وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة

قلت لاتطل فى أمره الجدال فهذا الحكم منا على رمية السهم فان شئت غشيناه . قال ماارضانى بحكمه ثم هم بالنهوض فقلت على رسلك حتى يحين الموعد فقد جعل لى أية للقائه ثم حدثته حديث سطيح وماكان من أمرى معه فارتاح الى لقائه ولما حان الموعد قمنا اليه واذا به ينادى صاحبي بقوله

شاعر عربى . وأديب سرى . طيب الله أنفاسه وازدهى السبق أفراسه . نهاز أذنبة الكلام . خلاب أفئدة الانام . قريب القلب واللسان . صديق الخاطر والبيان زاوته عوائر الجدود . عن مظاهر الوجود . فزكا شعره ولم ينبه ذكره ولو انصفه زمانه لماخمل مكانه . أولمحته القدره . لماحرم الشهرة أي فلان . إن ماخضت فيه من أمر صاحبك مع ذلك الواقف بجانبك . فانما فيه سواء زلة فى الآراء وانحراف عن خط الاستواء . أغرقت أنت فى القدح وبالغ صاحبك

فى المدح فخرجت بشاعر النيل عن افق الحسنات . وكاد يسمو به صاحبك الى سماء المعجزات . ولو انصفتها لأنزلتماه فى برجه . واركبتماه فوق سرجه

انه أرقكم طبعا . وأجملكم صنعاً فهو أن ركب الغزل والنسيب كان كانه يوحى اليه من قريب واذا سلك سبيل المديح فقد عجز عن وصفه سطيح . الأأنه ضيق المجال . وان كان واسع الخيال . يقع له المعنى الجليل . فى سبحات الفكر الطويل . فيمسكه خاطره . وتحرص عليه سرائره . والمعانى كالظباء كثيرة النفار . شديدة الاحضار فهى أن لم تجد من نضارة الالفاظ خميلة تسنح فيها أولم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها ذهبت عنها ان لم يضق بها المذهب وكذلك حالها فى شعر صاحبكم فهى أما نافرة واما حزينة باسرة ولو أنه منح من دقة المبانى مامنح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير منازع قال صاحبي وهو يكظم غيظه انه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة الاسلخه ثم مسخه فان كان الاسلوب على نحو ماوصفت وكانت المعانى لغيره فماعسى يكون فخره علينا وقد ذكر صاحب دلائل الأعجاز أن البلاغة لاتقع فى اللفظ ولا فى المعنى

ولكنها تقع فى الاسلوب فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحد كان خليقا أن لايسمى بليغا وصاحبنا لايزال مهزول اللفظ غامض المعنى يحتاج الناظر فى كلامه الى تخوت الرمل وطوالع التنجيم وقد قصرهمه على اصطحاب طائفة من الالفاظ لايعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره وإن كان غفلا من ذكره ولقد نظرت فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين فهو لم يغادر معنى فى خدره الاسباه ولالفظاً فى وكره إلا وأزعجه . الا ترثى بربك الى عظام ابى الطيب وهي تئن فى قبرها على ابيات شادها صاحبها وخربها صاحب الشوقيات . ولو كشف لك عن مجامع الأرواح فى عوالمها لرأيت منها ثلاثا قد ضمها الحزن وجمعها الأسى ولوقع فى سمعك صوت ابى عبادة وهو يندب شعراً دخل عليه الافساد وأنين المتنبي وهو يبكى كلاماذهب به المسخ وزفير بن الاحنف وهو يتحسر على رقة لعبت بها يد السلخ

ومن نظر فى قول ابى الطيب (نود من الأيام مالا توده) وفى قول صاحبنا (يود من الارواح مالا توده) علم أن الثانى اغار على الاول فسلبه مطلعا أبهى من مطالع الشمس ولم يقتصر على هذا السلخ حتي تخطاه الى المسخ فرفع لفظة الايام من شطر بيت المتنبي

ووضع مكانها لفظة الأرواح فى شطر بيته ثم جعله مطلعا من مطالع التهانى أنزل فيه ممدوحه منزلة عزريل من النفوس فانى لاأعرف احداً (يود من الارواح مالاتوده) اللهم الاملك الموت فهل بعد هذا نغفر له ضعف الاسلوب لما عساه يقع فى شعره من لطف المعانى وجلها على نحو ماسمعت

قال سطيح . انك لاتفتأ تتعقب سيئآته وتتحامى ذكر حسناته فمالك لاتذكر بجانب ذلك قوله فى هذا البيت الحكيم

فأنما الامم الاخلاق مابقيت فان هموذهبت اخلاقهم ذهبوا

قال صاحبى لوشئت أن أضع بجوار كل سيئة من سيئاته حسنة من حسناته لنفدت الحسنات وأنا فى الربع الأول من ليل السيئات

قال سطيح انك ان أخذت عليه أخذه للمعانى فقد أخطأت مواقع الرأى فلو طلعت الشمس على جديد لكان صاحبكم خليقاً بما تقول ولكن الاترى أن المعانى كالنقود تداولها الناس وليس عليهم فى ذلك من باس ولكن بعض ما أوتيه الرجل من الفضل أصبح داعياً الى حسده والوقوع فيه .

قال صاحبى . لوكنت ممن يعرفون الحسد لحسدت ذلك الذى يقول

أسمع فى قلبي دبيب المنى وألمح الشبهة فى خاطرى

ولـكني لاأنزل بنفسى الى حسد من يقول

مال واحتجب وادعى الغضب

بل أرثى له من التصاقه بمثل هذا الـكلام

قال سطيح . وهذا نوع من أنواع الحسد فانك تعمد الى ذكر شعر ملؤه الوهن والغميزة وتعرض عن ذكر ماهو رصين من شعره فتالله ان فى قوله

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله ايان تضرب

وفى قوله

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

لآيات لقوم يعقلون

قال صاحبي . حسبي فيما ذكر وحسبك فيما تنكره عليّ من ذلك أن انشدك هـذين البيتين ثم ذكر بيتـين لايحضرنى منهما غـير الشطر الأول

تلك القوافى التى شاهدت شهرتها

قال سطيح . صنع الله لك يافلان فانى أراك تستبطن أمره وتستقصي شعره ولـكن هذا لايعيب من لبث ماأدري كم سنة

يضرب على وتر واحد فى الغزل والمديح وهو يأتى فى كل ضربة بنغمة جديدة فلوانك جئت بأطبع خلق الله على الشعر وكلفته ان لاينظم ماعاش فى غير المدح لما غنى عن الظهير والمشير ولما جاء بأبدع مما يجيء به اليوم شاعر الشرق فاعلم بانه حقيق بالرئاسة عليكم وانه فى مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ورفعوها على ألسنة الاقلام فأن انكرته بعد اليوم فقد أنكرت نفسك وكذبت حسك فهو عميد رجال هذه الدولة الجديدة فلا يكن مثلك واياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه

كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد

فما ضركم لو تساندتم جميعا وانتم لاتجاوزن منازل القمر عدًّا فرفعتم من شأن هذه الدولة وحركتم من الخامدين وهززتم من الجامدين فانى أراكم بين متفصح على أخيه ومتنبل على قرينه وليس هذا صنع من يريد ماتريدون تحاولون رد هذه الدولة الى شبابها بعد ان خلا من سنها ولو لم يتداركها الله بذلك الافغانى لقضت نحبها ولقيت ربها قبل ان يمتعها بكم ويمتعكم بها . أدركها الافغانى ولم يبق فيها الا الذماء فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها وشدت من عزمها ادركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب فى سواد الشباب

فشاب قرناها قبل ان تشيب ناصية القرن الخامس فسودت يده البيضاء ما بيضت من شعرها سود الليالى وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها وبدا صلاحها وقد كان الناس فى هذا العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى فما زال بهم حتى ابصروا نور الهدى وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى الى حركة النفس وظهر أثر جمال الدين فى النفوس العالية واصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعية فكان من ذلك ان انطوى اجل التقليد وأن بعث الله على يديه ميت اللغة واحيى رفات الانشاء وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه أو مؤلفاً نغترف منه ولكنه ترك لنا رؤوسا تؤلف وأفكاراً تصنف وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجود بنفسه خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الاثر على صفحات الصدور فان لم ترثوا عنا فى بطون الكتب فقد ورثتم عنا فى صدور الرجال فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم يغادر كلاهما مؤلفا ولم يدع مصنفا فلولا محمد عبده ما عرف رجل الأفغان ولولا أفلاطون ماذكر رأس فلاسفة اليونان

ولما سكنت أنفاس الافغانى بعد أن تجددت بذكره الانفاس خلفه حكيم الشرق فى دولته ووطن نفسه على المضي فى طريقته فاسمع الناس فى الحق وأسمعوه وأخافوه فى ذات الاله وخافوه ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ثم مضى لسبيله رحمه الله

فتفتقت الأذهان وتطلعت العقول الى البحث وبرزت اللغة من خبائها تجر مطارف آدابها وأطل علم الأدب (Litterature) من مناره مشرفا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر . ونفذت أشعته الى السرائر . فنمى تحت نظره الشعور كما ينمي النبات جادته الشمس بالنظر . أو كسته أشعة القمر . فلطف من كثافة النفوس وهذب من مرارة الارواح حتى شفت الاولى وعذبت الثانية وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الادب وعلمه

واعلم ياولدى أن عز الامم موقوف على عز اللغات وأن حياة اللغات مستمدة من حياة آدابها فاذا ظهر علم الادب فى شعب كان ذلك آية لظهوره وعلامة على استعداده فهو الذى يهيئه لقبول أسباب الرقى والعمران ويعده

لمساغ أنواع العلاج ويروضه على احتمال المصاعب فى سبيل المعالى .
ألا ترى أنه يخاطب الشعور ويحادث الوجدان . فاذا خفق الاول خفقة حرّك منه واذا اغفى الثانى اغفاءة شرّد عنه ألا ترى أنه اذا تيقظ الشعور أحس صاحبه بالحاجة الى معرفة مايحيط به فهو يدفعه الى البحث واكتشاف أسرار الكون ويدعوه الى معرفة ماهية العوالم فلو انك جئت برجل هامد الشعور جامد الوجدان وحاولت أن تقنعه أن الناس فى حاجة الى علم الكيمياء مثلا لما وراءه من المنافع لنأى عنك بجانبه ورأى انك تحاول المستحيل وتدعو الى الباطل . كلّ هذا الرجل برهة الى علم الأدب حتى يتناول منه ماوراء الوجدان ثم ألقه بعد ذلك فتالله انك لترى منه ماكنت تراه من نفسك تراه مدفوعاً بقوة الشعور الى استنباط الوسائل والاستعانة بالعلوم والفنون على دفع اغارة النقص الذى أصبح يحس به فى نفسه وفي أمته

بعث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فى عهد كان ربيعا للغة وأدابها نضرت فيه الالفاظ وأورقت المعانى وقد مات من أمة العرب كل شيء الاشعورها ولسانها . مات منها كل شيء ولم ينقصها من مواد الحياة شيء فجاء الكتاب يخاطب منهم ذلك الشعور الحيّ ويكلم ذلك الوجدان اليقظ فسرت فى نفوسهم الدعوة سريان الكهرباء

ووقع منهم مغزى الآية فى الافئدة قبل وقوع لفظها فى الأسماع فكان مثل أحرف الكتاب وان جلت عن المثل كمثل احرف البروق هذه مطيتها الأسلاك تطوف بها حول المحيط طواف الفكر وتلك مطيتها الشعور يبلغ بها غاية النفوس قبل رجع البصر

صادفت الدعوة نفوساً غذتها اللغة وروّتها آدابها فعرفت قدر الكلام وبالغت فى تكريمه حتى رفعته الى مواطن الآلهة وسجدت له سجودها للهُبَلِ الأعلى

صادفت نفوساً تملكها الوجدان فاصبحت ترقص لشطر البيت فهى ان شاء حملها الشاعر الى مواطن الفناء وان شاء وقف بها فى مواقف الفخار صادفت تلك النفوس فلم تصدف عن آياتها وكان الفضل فى ذلك للشعور الذى ولده فيها فهم أسرار اللغة واستمراء لذة آدابها وكان من أمر العرب بعد الدعوة ماقد علمت ولولا آفة اصابت لسانها وفترة أماتت شعورها لرأيت أبيض الغرب وأصفر الشرق وصيفين فى بيت ذلك الأسمر

هذا هو شأن الدولة التى أدعوكم الى تأييدها وهذا هو أثرها فى النفوس فلولاها مارفعت دولة فى الغرب رأسها ولاخاف الناس بأسها . أنظر نظرة فى تاريخ دول المغرب وامعن قليلا فى البحث عن

أسرار مجدها تجد سرّ ارتقائها فى تضافر كتابها على بث روح التأثير فى نفوس العامة بما يزخرفون لهم من الأحاديث وقد ساعدهم على ذلك ان الناس هنالك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون فتتسرب الى نفوسهم معانى الشاعر وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وان كانوا لا يشعرون

خذ خطيبا ذلق اللسان كثير تزويق الكلام ملماً بالعربية . عارفا بالاعجمية . وتنقل به بين تلك الامم الواقف على أسرار لسانها ثم اندبه لان يقف وقفة ويخطب الناس وتفرس بعد ذلك فى وجوه السامعين وما يرتسم عليها من أثر تحرك النفوس وتنبيه العواطف واحفظ ذلك فى نفسك ثم عرج به الى مصر ودعه يقف وقفته ويستجمع قوته ويخطب ماشاء من الصبح الى المساء وانظر كيف يختلف القياس . بين صنوف الناس . فلو انه نثر على رؤوسهم التنزيل واتبعه بالتوراة والانجيل . ماحرك منهم جامداً . ولا نبه خامداً وأصل هذا البلاء الذي استعصى معه الدواء . ان لهم لسانين قد تناكرا حتى اختصوا اولهما بالكلام . وجعلوا الثاني من نصيب الاقلام فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذاك . ووقع حاملهما فى سوء الخلط والارتباك . فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر . وأشفقت من العثار

يراعة الناثر . اذا أرضى الشاعر لسان الكلام. أغضب لسان الاقلام. واذا نزع الكاتب الى محاسنة العامة . جره ذلك الى مخاشنة الحامه . دع ماتجنيه الصحف اليومية. على لسان هذه الامة العربية. وماتدخله عليه من لفظ عامى . وأسلوب أعجمى . حتى نعت اللغة نفسها على لسان صاحبكم حيث قال

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يُدنيني بغير أناة
واسمع للكتّاب فى مصر ضجّة ... فاعلم ان الصائحين نعاتى
أيهجرنى قومى عفا الله عنهمُ ... الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الافاعي فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الالوان مختلفات

فان لم تعاونوا على شفائها بعد وقوفكم على مكامن دائها فقد قضيتم عليها بالممات . وعلى أنفسكم بالشتات. وحسبك هذا من سطيح فقد قطعته عن التسبيح

قال الراوى ثم انقطع الصوت فقمنا ثملين مما سمعنا من ذلك الوليّ وقلت لصاحبي وهو كالمأخوذ ماعسى يكون ظنك بصاحبك بعد اليوم قال لقد صدق سطيح فيما وعظ . ورحم الله عبداً اتعظ . فان دابرت اديبا بعدها فلست لأبي وأشهد الله انني وقفت يراعتى

على التوفيق بين جماعة الادباء لعلنا نتساند جميعا على تأييد هذه الدولة التي لم تكد تدرج من مهدها حتى وقف بها الضعف على حافة لحدها ولو لم أكن خامل المنزلة بعيداً عن الشهرة لكنت أول الصائحين غداً بما وقع فى نفسى من كلام هذا الولىّ الكريم ولكن من كان مثلى كان خليقا أن لا تردد الصحف صدى صوته لعدم نباهة ذكره

قلت لقد أخطأت منافع الرأى فان خمولك يجعلك بمنجاة من الحسد والضغينة فاذا كتبت شيئاً لا تصرف الغيرة عيون القارئين عن الخوض فى جمال بيانه . وحسن برهانه . وربما بلغ خمولك من الناس ما لا تبلغه نباهة غيرك فلا تغتبط نبيها على منزلة نالها بعد جفاء المضجع وإنصاب البدن . فان بجانب اللذة التى يشعر بها عند التنويه باسمه آلاما يضيق عنها مدى الصبر وانما تحس بذلك كل نفس أخذت قسمها من الشهرة ولو أنك وقفت على ما يكابد النبيه من حسد المعاصرين وكيد المكابرين لزهدت فى عيشه وفررت من الشهرة الى الخمول ولرأيت رأى المعرى فى قوله

تمنيت لو أنى بروض ومنهل مع الوحش لا مصراً أحل ولا كفرا

فاعلم أن الشهرة سجن من سجون النفس يعقلها فيه حب الكمال الانسانى ويكلها لخفارة الفضيلة فلا يقوى على البقاء فيه

الآ قوي الارادة . وليس كل من عرفت من النبهاء مضطلعاً باحتمال ما يعرض له من آلام ذلك السجن ولا قادراً على مصارعة الهوى . وكم من نبيه أعياه أمر نفسه فنزع الى الخمول واختبأ فى ثنايا النسيان ورأى أن كفة اللذة مرجوحة فى باب الشهرة فنزع الى كفة اللذة فى باب الخمول

لقيت مرة أحد أولئك الذين كانوا من النبهاء ثم سكنوا الى عيش الخاملين فقلت له فى ذلك فقال لى لقد وفيت قسطى من الأولى وها أنا ذا استوفيه من الثانية فقلت له وماذا أصبت فى الحالين . قال أصبت فى الاولى لذة تكتنفها الآلام وأصبت فى الثانية ألما تحيط به الملاذ ولقد كنت وأنا فى ربيع الشهرة كأنى المعنى بقول أبى النجم فى أرجوزته

كالغرض المنصوب للسهام أخطأ رام وأصاب رامى

وكان شعارى فى التمثيل بهذا البيت

فياعفتى مالى ومالك كلما همت بأمر همّ لى منك زاجر

فكان الخامل اذا حاول التسلق الى مراتب الشهرة جعلنى سلما لغرضه واعتمد علىّ فى الوصول الى غايته وكأن الناشىء فى حرفة الأدب لا يرى لنفسه منفذاً للظهور فى غير الغض منى والوقوع

فيّ فلا تخلو مقالة يحبرها أو قصيدة يقرضها من انتقاصي والنعي عليّ فيما أذهب اليه من مذاهب الأدب كنت أقرأ كل مايهذى به ويدى قصيرة عن ادراكه لعجزه وخموله وما يعجزك مثل العاجزين دع ما كنت أكابد من حسد المعاصر وأقاسى من صرف النفس عن سبيل الهوى فكم تمنيت مجالس الشراب والتبسط على اللهو وحالت بينى وبينها الحوائل وكم التفتت نفسي الى مايدعو الى التفات النفوس من الشهوات فأكمتها الى سلطان الكمال. ومادتها حبل الجدال. حتى اذا همت بالخروج عن دائرة الامتثال. وسئمت صحبتها على تلك الحال. رأيت ان أرفه عنها وأهون عليها فعمدت الى الخمول لاجمع فيما بقى من أيام العمر بين اللذتين وأسرح النفس من ذلك السجن الذى كاد يأتى عليها وما فعلت ذلك التماساً لعقوق الفضيلة أو نزوعاً الى عيش المستهترين من عبدة الشهوات فليس ذلك من أمرى ولا هو بمذهب عند مثلى ولكنى فعلته طلباً للهدنة بينى وبين الزمان وإشفاقاً على الحاسدين من حسد أكل صدورهم وعملا بقول القائل

ليس الخمول بعارٍ على أمرىء ذى كمال
فليلة القدر تخفى وتلك خير الليالى

كذلك كان يحدثنى ذلك النبيه عن آلامه فهل تغبط بعدها

نبيها على عيشه وتتطلع الى الدخول فيما يخرج عن الطوق ألم تر الى فريق الفلاسفة كيف انه اختار العزلة ونفر من الشهرة وهذا (ايبيكير) اليوناني يقول استر حياتك ما استطعت

قال صاحبي لقد حببت الىّ عيش الخامل على مافيه من غضاضة تلحق بالنفس وفتور يقع فى الهمة وان كان هذا شأن الضعيف من الناس فاني أراني قد خلقت ضعيفاً ليس فى طوقى احتمال ماذكرت من المصاعب. فلو أنه سلف لى من نباهة الذكر ماسلف لى من الخمول لقارنت بين الالم فى الحالين . وحكمت بين الراجح والمرجوح من الكفتين . ولكن سلنى ان شئت عن آلام الخاملين أصورها لك تصويراً يبلغ منك مبلغ العيان

قلت مهما تأنقت فى التصوير وأبدعت فى التعبير فان ذلك لا يكون شيئاً بجانب كلمة يقع بها فى عرضك سافل رجاء أن يجتعل على سبك من حاسد يكيد لك أو معاصر ينفس عليك وها نحن أولاء قد بلغنا مكان الافتراق فمنى عليك السلام

قال الراوى ثم أخذ كل منا سمته الى داره ولما كان الغد. وقد حان الموعد . خرجت أطلب سطيحا فأخذت طريقى اليه ولم يسم لى فيه ما يلفت النظر ولم يقع بصرى على حىّ استصحبه غير انى لم أكد

أبلغ مكان اللقاء حتى ترآى لى انسان لم أدر أخرج من الارض أم هبط من السماء فتبينته فاذا هو غلام مراهق يتيمن الناظر بمشهده كأنه صور من نفس من ينظر اليه فدانيته وأنا اكبره لما ألقى الله عليه من الهيبة وقد بهرنى جماله وأخذ منى حسن سمته فما هو إلا أن رآنى حتى أقبل بوجهه علىّ وخاطبنى بلسان عربى قد خلص من لوثة الاعرابية وسلم من لكنة الاعجمية قال بعد أن حيانى وسكن الى ودانانى إن ولىّ الله يأذن لك ان تنطلق الى هذه الحاضرة وأنا ولده فكن منى بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران فقد اذن لى أن ابرح الليلة الغار . ومد لى فى أجل الرجوع حتى يلوح النهار . فقلت له وقد تحفظت ما استطعت من أن تبتدرنى سقطة فى الكلام فيعدها علىّ فقد رأيت نفسي امام عربى فى صدر الاسلام قد قوم التنزيل من لسانه وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه ألا أرى الليلة ولىّ الله وقد كانت بينى وبينه آية للقاء

— قال انه يتهيأ للقاء الخالق وقد انقطع عن كلام المخلوق ألا تذكر ماقال لك يوم ظفرت بلقائه (لقد كشف لك عن مكانى وقد آن أوانى) قلت ألا أتزود منه بنظرة قال فى غد أن شئت اعد الكرة فانه موعود برؤيتك فى يوم خروجه من الدنيا ثم أوماً الىّ بالمسير فسرت

كلما أخوذ ونفسى على غير ما اعهد كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التى تتصل فيها بعالم الملائك وكنت كلما نظرت الى ذلك الوجه المقسم وهو يتألق بجانبي همت بتصديق المقنع فيما يدعيه فى بدره وما يخيله للناس من ضروب سحره فمازلت أسايره وما أكلمه هيبة واجلالا وقد كنت آليت أن لا ابدأه بالكلام حتى عبرنا الجسر وقطعنا ما بين يديه من الطريق وقد هممنا أن نعطف يسرة قال صاحبي أراك منذ صحبتك صامت اللسان وان كنت ناطق الجنان فمالك لا تحدّث ضيفك

— قلت انى رأيت فيما لا يغيب عنك من أدب المحاضرات أن لا يكون كلام الصغير الا جوابا على سؤال الكبير وقد ساورتنى منك هيبة فكرهت أن أبدأك بالكلام فتنزل أمرى على الجرأة عليك وقد قال الاستاذ الأمام رحمه الله (العلم من علمك من أنت ممن معك) وانى لخليق أن لا اخرج عن أفق القدر الذى حدده لنفسى علمى بها فليس لى عنه متقدم فأغرر بها ولا متأخر فاغض منها

— قال إني لأرى أناة تحمد . وفضلا لا يجحد . ولقد أكرمك ولىّ الله بحسن الثقة وأكرمنى بصحبتك أيها الأديب فانطلق بى الى تلك البقعة التى وقف الشيطان فى ساحتها يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار فى العود ويشيّع المنقلب عنها بنظرة

لو كانت سهماً لنفذت من صميم الجلمود قلت لعلك تعنى الازبكية قال أى وأبيك فانطلق بى اليها قلت بأى الاندية تريد ان نبدأ قال بانفقها سوقا. وأكثرها فسوقا. قلت هذه المراقص المصرية. والمخازى العصرية ثم همهنا بالعطف على احداها فاذا بصاحبى يحد النظر الى انسان يتعثر فى مشيته. يريد بناؤه ان ينقض عند كل خطوة من خطواته لفرط هزاله. وسوء حاله. عليه لباس قداخذت منه الاجواء وتعاقب عليه الصيف والشتاء وقد نم منه الظاهر على الباطن فقرأت على وجهه سطور السأم وآيات الالم. فقلت انى ارى سيدى ينعم النظر فى هذا الانسان ولعله قد داخلته رقة عليه قال أى وأبيك إن فى هذا الهيكل لنفسا سجينة. وان في ذلك الصدر لاسراراً دفينة. فلو رأيت ان ندانيه فنستبطن أمره. ونستطلع سره. قلت وقد جعلت أنعم فيه النظر كأنى أعرف هذا الانسان وان تنكرت معارف وجهه وكادت تندرس معالم جسمه. فمازلت انفيه واثبته وهو مشغول عنى بقراءة صحيفة فى يده وقد غمره ماهو فيه من الحزن والأسى حتى تحققته فناديته باسمه فرفع طرفه ودلف الىّ مسلما وقال لى مغمغما لاتقذ عينك بالنظر الى هذه الاسمال فلولا مطاردة القوم لرأيتنى على غير تلك الحال. قلت وقد جال الدمع فى عينى جولة لم

تخف عليه لعلك لم تحفظ قول التهامى فى الدهر . وهو يتقلب منه بين اليسر والعسر .

لاتحمد الدهر فى بأساء يكشفها ... فلو طلبت دوام البؤس لم يدم
والدهر كاطيف نعماه وابؤسه ... عن غير قصد فلا تحمد ولاتلم

ثم التفتُّ الى صاحبى وقلت له هذا احد من طوحت بهم يد السياسة الانكليزية الى مهاوى البؤس والشقاء فان شئت أن أحدثك فان له حديثاً يأكل الاحاديث قل ماشوقنى الى سماعه ثم انتحينا ناحية وجلسنا ، وبدأ ذلك البائس يحدثنا

اللهم إنى أعوذ بك من ثلاث : الموت الأحمر والرداء الاحمر والكتاب الاحمر . قال صاحبي: على رسلك أما الموت الاحمر والرداء الاحمر فقد عرفناهما وفهمنا مغزاهما فما عسى أن يكون ذلك الكتاب الاحمر

قال : وضعه قائد الجيشين . ورافع العلمين . الحاكم بالارادتين ووكيل الدولتين . فاتح أم درمان . وحاكم السودان . وصاحب جزيرة إسوان . رافع ارم ذات العماد . وقريع فرعون ذى الاوتاد . واصل أعصاب الفيافى والقفار . باعصاب المدائن والامصار . ساكن القصر ونابش القبر . ناسف القبّه وسالب الجبه . وهو المهدى . رفات المهدى . والجاعل قبته مربطاً للجياد . ومسجده ملعبا لحُمُر الأجناد .

الناقل تلك الكنوز والدفائن الى تلك المصارف والخزائن . المغربى الذى يستشف أحشاء الخبايا بسحر السياسة . وطلّسم الفراسة . ويفك ما عليها من الارصاد بدماء أبناء البلاد . بعد تبخيرها بخور التمويه . تحت مُلاءة الترفع والتنزيه . ذلكم اللورد الكريم مخض قانون دولته ثم استخاص من زبدته ذلك الكتاب الاحمر وأضاف عليه حاسبه الله ما أضاف وهو اليوم تجرى عليه الاحكام فى الجيش وان لم يوقع عليه أمير . ويشعر به وزير . وللجيش قانون آخر قد اشتملت عليه صدور القوم لاتدركه أبصارنا ولا تحيط به أوهامنا . نقشته يد السياسة على صفحات تلك الصدور فلا يمسه إلا من مسّ تراب تلك الجزيرة جثمانه ولا يراه الا من رفعت يد الزلفي عنه الغطاء ، ذلك قانون الارادة

فالويل لمن وقف وقفة المجرم أمام القانون الاحمر والويل ثم الويل لمن وقفها أمام قانون الارادة ذلك الذى نفذت ارادته فى صحاب الثورة السودانية وكاد يلحقهم لولا دفاع الله باحدي الجزيرتين. وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكما من حديث أصحابها . انهم فتية ربهم أعلم بهم غلبوا على أمرهم وأخذوا بجريرة غيرهم وانى أقص عليكما من أنباء الثورة فقد حضرت أولها وعلمت بآخرها

صدرت مشيئة القائم بالامر فى السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود فتساءل الناس عن هذا النبأ ومشى بعضهم الى بعض وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوزاة وانحراف الاميرعن القوم فكثر التأويل كما كثر القيل فتنبأت طائفة ان سبب هـذه المشيئة هو التحرز والتوقى من انتقاض الجيش وقد نما خبر خذلانهم فى أوليات الحرب الترنسفالية وظنت طائفة أخرى ان سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا انه واقع بين الاميروالقوم وقال ذووالاسنان منهم انها محنة من محن السياسة يبلون بها طاعة الجيش

وقال صاحب الامر وقد أنهى اليه عيونه أمر تماوج الجيش انما نفعل ذلك صونا للذخيرة من الرطوبة وحرصاً عليها من الضياع والمصرى من الجنود كخرقاء أصابت صوفا لا يحسن القيام بحفظ ذخيرته وقد علمتم حال الزنجى اذا ملكته سورة الغضب فانه حاضر الانتقام يغضبه أخوه لبادرة تبدرمنه فلا يرى أهون عليه من الفتك به وما أردنا بهم إلا رشدا

ولما كان الليل واجتمع احداث الضباط فى ناديهم وأخذوا يتحدثون فى أمر يومهم قال قائل منهم أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود ونحن فى بلد غير أمين وهـذه دماء أعدائنا لا تزال

غريضة وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة وتغلغل الضغن فى نفوسهم وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها وما أحسبهم وقد علموا اليوم بحالنا إلا غادين على مباداتنا لعلهم يثأرون . وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ويتسقطون الخبر وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم فهم يعبدون الرداء الاحمر . والفارس الاصفر . فلم يجدوا شيئاً يلقون به صاحبهم هو أقرب زُلفى من نقل ما سمعوه فاستبقوا بابه ورفعوا اليه الامر على غير وجهه فوقع كلامهم في نفسه ووعدهم خيرا

وبات يقلب طرفه فى أسطرلاب السياسة ويحسب تقويم كواكب الرأى فى أفق الدّهاء وحدث فى ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصفت برءوسها النخوة فعطفت على الذخيرة فارتدّتها قسرا ولما حاول كبيرهم ان يثنى عنها عنانهم . ويحول بينها وبينهم . وفوّه قسطه من الاذى وما زالوا به حتى رنحوه لطما ولكما

فعظم الأمر على صاحب الأمر وكادت تخلع شعبة مهجته هلعا . ويقطع نياط قلبه جزعا . وتمثل له شخص واشنجتون وفى يده علم الاستقلال وطار به الوهم الى لاديسميث فانحلت منه الاوصال ونسي انه بين مصريّ له ولىٌّ من الذل . وزنجبيّ على قلبه أكنة

من الجهل . وكذلك لم نجد له عزما فجمع اليه نفراً من قومه وشاورهم في الأمر فاشاروا عليه بالتماسك وان يتراءى للجنود في هيئة المتفقد للشؤون المستخف بالكوارث فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرسي ولا يماشيه أحد من قومه وكان يكون معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وامضاء أمره فما زال يستقرىء الوجوه والأبصار وهو كلما مرّ بقوم تراصفت أقدامهم والتصقت أيديهم بجباههم وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع حتى اذا صار بمكان الوقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع نظر فاذا جيش من النسوة يموج بعضهن في بعض وفي يد كل واحدة منهن هراوة فما هو الا ان طلع عليهنّ حتى عطفن عليه يعبسن بها وجه جواده : فاشفق أن يصيبه عنت منهن فلوى رأس جواده وأخذ يحتثه هربا وما زال يركضه ملء فروجه حتى وصل الى دار حكمه . فلما آمن في سربه أصدر مشيئة ثانية بابقاء الذخيرة في أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود وبعد أن كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة وحفظها من الضياع أصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع

فدعت مثنوية رأى الحاكم سوء ظن المحكوم حتى ذهبت الظنون

مذاهبها وحتى قال أحد الجنود السودانية لكبيره وهو يخطبهم ويدعوهم الى الامتثال الم تعلم ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقاً ضعيفاً كان أوقوياً الاجعل له من جسمه مايدرأ به الاذى عن نفسه وهذه السمكة فى قاع البحر قد انبت لها فى ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر فكيف بى وأنا ليس لى ماأذود به الردى عن نفسى الاتلك الآلة التى نزعتم روحها فاصبحت كالعصا وماارديتم بنا الخير ولكن على كيدنا تعملون

وفي ذلك اليوم استدعي صاحب الامر أصحاب ذلك النادى وقد طرح عنه الانفة السكسونية وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانيه وأخذ يروض نفسه على التخلق باخلاق بني الانسان وقال لهم وقد مثلوا بين يديه ومامنهم الامن استروح روائح الرفق من شمائله لقد رفع الينا خبركم بالأمس وماخضتم فيه من الحديث فكدنا نعجل العقاب لولاماسبقت به شفاعة الحلم فأنتم وان اخطأكم عاجل العقاب فلا يخطئكم آجله اذاعدتم لمثل فعلتكم التي فعلتم فاذهبوا اطلقاء السن فلولا حداثتها لمثلنا بكم تمثيلا واياكم وذكر السياسة فلستم من المنزلة التى يتناول اهلها الكلام فيها فانزعوا عن شياطين الصحف فهى انما تزين لكم من العمل مالاتحمد له مغبة ولاتغتبط عاقبة ولا يقوم

بنفوسكم ان الكهرباء الفرنسية تسرى فى أعصاب أرض وطئتها قدم الانجليزى فهى لها الجسم العازل . والحد الفاصل . فما غاب عنا امركم ولكن سوف تعلمون من منا يحزُّ الودج أسفا .ويقلب الكف ندما ويقول ياليتنى لم اتخذ مع الجهل سبيلا ولقد كنتم فى ضلة فهدينا كم . وفى ذلة فاعززناكم . وماكان المصرى فى العزباجمل منه فى الذل فحسبكم ماسمعتم فما بعد اليوم الاماعلمتم فخرجوا وهم يحمدون الله على النجاة من مخالب العقاب

وينقضى ذلك اليوم والاحرف البرقية تنبض باسلاكها والرسائل بين السردار ونائبه تروح وتغدو على وجهها وتملأ انباء الثورة فؤاد السردار رعباً فيقول فى نفسه أفتنة فى الجيش ولما أقم بالأمر فيه غير أيام معدودات فياسعد كتشنر كيف تحولت لى نحساً فيخف الى العميد فينفض اليه جملة الخبر ثم يستوزعه الرشادفى العمل فيلقّنه كلمات يلقى بها الأمير

قد أخرجوه بكره من سجيته والنار قدتنتضى من ناضر السلّم

فيصدق الطير ويعود السردار وهو يحمل ذلك الامر العالى وهنا تمنعنى هيبة الامرعن التعرض لذكر ماجاء فى الامر فالله عليم بذات الصدور

كل ذلك وحركات السياسة الانكليزية تجرى فوق سكون الجيش وهو كانه فوق جارية في عرض البحار نام ربّانها وتولى الموج امرها فمالبث ان توج بها رأس الصخر ثم جعلها سرًّا فى جوف البحر. ولما ظفر السردار بمناه راغ روغةً فاذا هو بالسودان وقد شمرت ايام عيد الفطر فأمر بتجديدها وان تحشر له جنوده من السودانيين والمصريين ونادى من قِبَله المنادى معشر الجنود كل من نابته ظُلامة أونزلت به شكاة فهذا باب السردار لايحجبه عنكم حاجب فطفق الضباط يتسابقون الى بابه وجعل يقابلهم على انفراد وهو كلما خلا باحدهم بالغ فى محاسنته ومصانعته فلايكلمه الاماء البشر يجول فى محياه وكذلك انقضى اليوم والسردار ينثر عليهم بدَر المواعيد فماخرجوا الاوءُ وسهم مملوءة بالامانى وايديهم بالامال

ولقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى كل حول يومان يوم جعله للنعيم ويوم للبؤس فكان يحبو من يلقاه فى يوم نعيمه بما يجعله مكفيّ المؤونة طول حياته ويصب على من يعثر به فى يوم بؤسه سوطا من العذاب فاراد ملك السودان ان يجرى فى طريقة ذلك الجبار باحياء سنته ففعل شرْواه غير انه زاد عليه فجعل للنعيم شهراً وللبؤس شهراً فمضى الاول منهما وهو شهر النعيم والجنود

السودانية ترتع وتلعب والسردار يعطي ويهب وكبار الضباط تصبح وتمسى على الموائد والمصريون كانهم المعنيون بقوله تعالى فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون حديثا

فاذا أيام النعيم ولت . واذا أيام البؤس حلّت . واذا الموائد رفعت . واذا العهود نكثت . واذا الصدور نفثت . علم المصرى انه غُلب على امره والزنجيُّ انه جنى على غيره وهنا يلوح هلال شهر البؤس يطالع فى صحيفة الأفق أسماء أولئك الذين تقاسمهم العزل والطرد . فلم تشرق شمس يومه الاول حتى أصبحت دار الولائم ساحة لانعقاد المحاكم . وأمر السردار ان يكون التحقيق علنيا بعدان كان سريا واليك بيان ماوقع فى السر والعلانية

استقدم القائم بالأمر فى السودان قبل أن يروعه الأمر بالسفر الى الترنسفال رجلا من كبار الانجليز وكانت الثورة اذ ذاك فى عنفوان شبابها وقد بلغ الخطب اشده كما يزعمون فولاه امر التحقيق وامره ان يسلك فيه سبيلا اخفى من السر واظلم من الكفر وقال له لتكن عيونك فى نقل الخبر . كنسيم السحر . ينقل عن يانع الزهر . وهو لا تدركه العيون . ولا تحيط بمسراه الظنون . وضع أمامك ابرة الخداع فهى لا تلبث ان تقتادك الى الحقيقة ولا يحزنك

اجتماع المصريين فالمصرى والمصرى كشعبتى المقراض ما اجتمعا على عمل الا افترقا . وليس التفريق بين أنامل اليد وقد التصقت بأيسر من التفريق بينهم وقد اجتمعوا . ولا يغمض عنك ان النثرة من النقود تنثر ما فى رءوس الزنوج من الأفكار وأن التفريق عليهم يدعو الى التفريق بينهم . وليجتمع فيك ما اجتمع فى الرمح من البأس واللين . وليكن كلامك كالنفس فى كونيه ان شئت لطّفت به الحارّ وان شئت فالعكس . ولتتخرق كفك بالنوال فقد ضمنت رده الينا تلك المناجم الذهبية التى نحن فوقها الآن وادع هؤلاء الزنوج وحداناً وأخل بهم كما يخلو الشيطان بالانسان وكن كالدينار لتجتمع القلوب على الرغبة فيك . ولا تنس كلمة أرسطاليس للأسكندر حين نصح له فقال واجمع بين بدار لا خفة فيه وريث لا غفلة معه . فخرج من عنده وهو يترسم ذلك الأثر ويقول ان نفعنا الدهاء فاليوم ولما خلى بنفسه وجمع اليه كيده أرسل خلف العيون فألقى عليهم كلمات يعملون بها ثم أخذ ينظر فى وجوه الحيل ويستنبط أمثل الطرق وما زال يستمد قريحته حتى فتق له الذهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية فجعل يدعوهم ليلاً على انفراد فاذا ظفر بأحدهم هش له وأدنى متكأه وحادثه محادثة القرين وقد طرح عنه أبهة الرئاسة وجلس معه على بساط

المساواه حتى اذا سكنت نفسه الى حديثه وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته طارحه حديث الثورة وما كان منها ثم استرسل الى ذكر أسبابها فقال ان الأمير حرسه الله ليتسخط عند سماع هذا النبأ وهو اليوم واجد على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووكم بالاباطيل فما فعلوا ذلك الا نكالاً بكم حين علموا اننا سنبلغ بكم أسمى المراتب فنجعل منكم الامراء والحكام فى السودان ثم نمكن لكم فى الأرض وقد علمتم ما لنا من الفضل على الجنس الأسود فنحن الألى نزعنا عنه أطواق الرق والعبودية ونحن الألى ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض كما ساوى الربيع بين الليل والنهار . وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر فنعرف أولئك المصريين الذين نفخوا فى مناخركم فركبتم رءوسكم وطاوعتم أهواءكم حتى اذا أدرك الجزر بحر الهياج تسللوا عنكم وخلفوكم بين السخط والعقاب فاذكروا لنا أسماءهم لتنظروا كيف نمثل بهم واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم الا خيراً ولا يرون الا شراً وما مثلنا معكما الا كمثل لعاب المزن تصيب منه الأصداف فيكون درًّا وتصيب منه الصلال فيكون سمًّا

يقول ذلك والقدح لا يكاد يفرغه الزنجى . حتى يملؤه الانكليزى . فاذا نال منه الحديث وأخذت الخمر استملاه أسماء أولئك الذين يزعم أنهم جروهم الى عدم الانقياد فيملى عليه ما يحضره من تلك الأسماء ولا ذنب لأصحابها الا أنها مرت بخاطر هذا الزنجى . حين اضطره ذلك الانكليز . هذا ما كان يدور عليه فلك السياسة البريطانيه . مع الجنود السودانية . اما الضباط منهم فقد وجدوا السبيل الى استمالتهم بالمواعيد فكان اذا خلى بهم ذلك القلب طار حهم ما اسلفنا من الحديث وزاد عليه فقال وما كان لنا فى جميع الذخيرة من ارب سياسيّ كما وسوس لكم أولئك المصريون ولو شئنا لاشئنا ان نوقع بكم لأمرنا بعمل مناورة حربية فاتلفنا فيها كل ما بايديكم من الذخيرة وانتم لاتشعرون . ولكن فلان هو الذى ساقه قائد العجلة الى ركوب هذا الشطط فكان جزاؤه الخروج من الجيش فقد احفظ العميد واغضب الامة ونبه نياماً لم توقظهم رعود السياسه منذ ثمانية عشر حولا على اننا سنردهم الى سبات لايقظة معه بعد ان نبدد شمل الجيش فى اقطار السودان ولنجعلن كل اثنين منهما كالمتآزبين فى مستو واحد لا يلتقيان . ولسوف يعلمون من منا أكثر مالا وأعز نفراً ثم يستمليه من تلك الاسماء فيملى عليه ماشاءت الخمر وشاء الامل

ولما اهتدى ذلك المحقق الى مالاتهتدى اليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب وجمع فى خريطته مايربو على الثمانين اسماً خفّ الى كبيره وقد حمل ظلما فو الذى علم ادم الاسماء كلها اما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه . فقال له كبيره وقد نظر فى الامر نظرة الحكيم انى لاأرى رأيك فى عقاب هؤلاء الثمانين وما جرت الثورة العرابيه الى مايقارب ذلك العدد ولكن نضرب عليهم بالقداح فمن صادف النحس سهمه حق عليه العقاب ولاتجاوز تلك القداح أنامل الكفين عداً فاذا فعلنا ذلك أمناشر العاقبة وفزنا بالغاية من أرهابهم وما احسبهم بعد ذلك الاقد صدقت قلوبهم وانصرفت وجوههم عن بعضهم بعضا ومتى انتهى فصل العقاب عمدنا الى النظر فى وجوه مطالبهم فادخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم وحبونا بعضهم بالنياشين . فينسيهم ماهم فيه من السرور كل مالحق باخوانهم من الشرور ولقد غضب الاسكندر يوماً على أحد جلسائه فامر بابعاده وتفريق ماله على اخصائه فقيل له فى ذلك فقال فرقت ماله على احبابه لكي لايشفعوا فيه وكذلك كان رأى الحاكم العام فى أخواننا الذين سبقت لهم منه الحُسنَى وفى الأولى حق عليهم منه العقاب

خمدت جمرة الثورة التي كان يحدمها الوهم وسكن بحر الهياج ووقف فلك العصيان وعادت اجرام السياسة الى الدوران ورجم الثائرون بشهب من العذاب فمن يثر اليوم يجد له شهابا رصدا . وهدأ زئير الأسد البريطانى . وأصبح حاكم السودان مبرود الغليل . وحمد العميد مغبة الرأى . وقام الواعد بوفاء الوعود فحلّى صدر الدجى بكواكب النياشين وصدرت نشرة المكافآت وما لغير الزنجى فيها نصيب . وآن لنا أن نشرع فى ذكر أسباب الفتنة السودانية فقد علمتما ماكان من أدوارها

لقد أراد الله ان تمتد الثورة من كوخ حقير كما أمتد الطوفان من التنور وسببها كلمة خرجت من ذلك الكوخ فحملتها الريح الى اذان الجنود السودانية

كلمة لأَمَةٍ كانت تحت جندى من الزنوج جاءها زوجها عشاء فسألته عن أمر يومه فذكر لها حديث الزخيرة فقالت له وما عسى أن تكون حالكم اذا صبحكم العدو أو مساكم فلقد أصبحنا سواسية فى العجز وبات الرجال والنساء كاسنان القوارح

فليت لى بك زوجا ان أشرت له هذا العدو أتى اصلاه نيرانا

تلك هى الكلمة التي مارت لها جزيرة القوم واهتز العرش

البريطانى . وطار نوم حاكم السودان . ومرت امامه حوادث حرب الاستقلال مرور الصور المتحركة تلك هى الكلمة التى اجتمع لها البرلمان وقرر تخفيض الجيش . وحكم على كل مصرى فيه بسوء العيش . ولقد كنت احد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وها أنذا وليس وراء مابى من سوء الحال غاية . ولو لم أكن متخرجا فى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال ولكننى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال

الجهل شخص ينادى فوق قامته لا نسأل الربع مافى الربع من أحد

فلقد لبثت فى الجيش مع من فيه بضع سنين فصبرنا على مالا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سخروا لبناء الاهرام وأقامة البرابى وما باتت الأنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الانكليزية نعم ولا لاقى جيش الاسكندر فى فتوحاته ولا جيش نابليون فى غزواته بعض مالاقته هذه الفئة المصرية . فى الاقطار السودانية . فلو حاول الانجليز وصل الكرة الارضية باحدى السيارات بمد السكك الحديدية لما وجدوا من يصابرهم على هذا العمل غير ذلك الجيش فلقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش الى الحال التى تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم

تخطئهم وساوس الصدور ولم تفتهم خطرات الافكار

دخلوا مصر وفى جيشها من هم أولى سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم ومن حنكته السن وغزته التجربة وخبطته الحروب فكنت ترى فيهم المهندس الماهر . والكيماوى الباهر . والمحيط بفن الحرب . وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا فاشفقوا ان يكون هؤلاء أمام سياستهم صفا صلداً . فزحزحوهم عن اماكنهم حتى اصبح الجيش عُطلا من كل رجل ركين . ثم نظروا فاذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الاسود لبان العلوم والمعارف فها لهم أمرها وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حلي فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السليبة ثم يقموها اساتذتها وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج . يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة اشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها . لا يزيد علمه فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرع فى أخذ الصور من تلك المدرسة فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش

فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف واقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينعق

فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك وبات يطلبها كل فدم وجاهل
كما تطلب البوم الضيعة الخربه

يمشى الكبير من الانجليز فى معسكر الجنود السودانية فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام وكأنهم وقعوا على تمرة الغراب. فيقف عليهم ويتفرس فيهم ثم يختار من تدركه السعادة منهم فيقذفه بمنجنيق ارادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده اليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس فيغدو اليوم حاكما على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس وربما كان فيهم عمّه وأبوه

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال الى أن تعبد الحجرا

ويمر ذلك الكبير من الانجليز على الجنود وهم على مصافّهم قيام فيروقه منظر احدهم ويعجبه حسن سمته وما هى إلا لفتة منه الى كاتم سره حتى يمسى ذلك الجندى تلميذاً فلا يهل بالمدرسة شهراً حتى يوافى اخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد يمسكه لسال خجلا

شكا ضابط مصرى الى كبيره وهو يحاوره من سوء العيش وجفوة الرؤساء وكثرة الأتعاب وقلة الأعطية فاجابه الأنجليزى وقد أمال سالفته تيها وثنى عطفه كبراً. اذا اصبح السردار وقد أراد

ان يملاء غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذة ألا تتم له تلك الارادة . قال المصرى بلى فلا يكلفه ذلك غير النشر فى أحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب . قال الانجليزى لهذا انتم فيما انتم فيه من البلاء فهو إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ولو عاف المصريون ورود هذا المورد وانصرفت وجوههم عن ذلك الباب وعزفت نفوسهم عن الولوج فيه لاصبحتم من الاعزاز بحيث نحن الآن ولكن أنّى يكون لكم ذلك ومافيكم إلّا من هو معنىٌّ بقول ذلك الشاعر الجاهلى

لحا الله صعلوكا مناه وهمه من العيش ان يلقى لبوساً ومطعما

لذلك تكسرت فى المصرى الاظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعيّ الجناب يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء القالة وهو كأنه العمر كلما مر به يوما لحق به النقص

ينظر المصرى الى الانجليزى وهو كأنه ينظر اليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة واجلالا ويتضعضع لرؤيته . وينظر اليه الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس الانجليزى فيه وهو أن خاطبه خاطبه بلسان لاتجرى عليه كلمة

تستروح منها روائح الرفق او باشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر

هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط اما الكبار منهم كبار الرتب والاجسام . لا كبار النفوس والاحلام . فحالهم الى الرحمة أدعى منها الى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الانجليزية كؤوساً من منقوع الرعب . فاذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث حتى اذا صدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لأمضاء ذلك الأمر فهو الى اجابة داعيهم أسرع من الصدى وهو على حفظ أمره أحرص من الفنوغراف على حفظ الصوت

اللهم ان العيش مع الابيضين وأن أبردا العظام . اروح للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن اكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروقك ماترى ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء افئدة هواء

فليت سيوفهم كانت عصياً وليت نجومهم كانت رجوما

قال صاحبي وهو مقبل عليه انى أراك موتورا فلا بدع اذا بالغت فى النعى على القوم فيما يذهبون اليه من ضروب سياستهم

قال البائس وماعسى ان تقول اذا حدثتك عن حياة الضابط

الانجليزي فى الجيش المصرى

يهبط أحدهم مصر فماهو إلا أن يشم نسيمها . حتى يقابله الامر بنصب فى جيشها

فاذا سما من رتبة المؤمور الى رتبة الآمر وأصبح عطاؤه الذى كان لاينجاوز أيام الاسبوع عدًّا وقد تجاوز ايام الشهر ونقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه الى معدن يرغب فيه وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم الي كنوز الذهب وهبت ريح سعوده . ونسي جلود جدوده . نظر الى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها . وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط فيأخذعنهم مبادىء اللغة ولايبدأ فيها الا بحفظ كلمات الهجر والفحش فاذا وعى منها كلمة واراد استعمالها فيما وضعت له أسرع الى المصرى فجبهه بها عن غير ذنب فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق فاذا أنّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الانجليزية كذلك نصيب كل مصرى يخاطبه الانجليزي بالعربية ولم يفهم مقصده لتعذر النطق عليه أولعذوبة الكلام عنه أولأ يراده على طريقة النطق الانجليزى فينطقه بلسان يرتضخ انجليزية وحلق كأنه يقيء

ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضبا وينشق غيظا وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الانجليزى فبحثت فى الامر فاذا الانجليزى حديث العهد باللغة

والويل لمن يقع تحت سيطرة الانجليزى قافلا من الهند فان رجله الى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه الى سبه

ومن لم ير نعيم الدنيا أو يتزق عيش الترف فليقدم الجيش وينظر الانجليزى فى لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه . وعز سلطانه. اذا صاح أبتدرت صيحته الألوف. واذا مشي قامت اجلالاً له الصفوف

واذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج واذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج

أأفريدون فى التاج أم الاسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت الينا بسليمان

يهب من نومه فترامى الخدم على خدمته كلٌّ فى شأنه الذى نصب له . . فاذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه قدم له الجواد فاستوى عليه ومضى متباطئاً الى حيث الجنود مصطفة للتدريب غير مبال بانتظار تلك المئات ولا بما يلحق بهم من السام والملل اذا تأخر أوان تجليه عليهم الى وقت الضحى وهم يرتقبونه

والليـل والصبح خيطان . فاذا صار بحيث تراه العيـون سجدت السيوف وقامت البنادق وخفتت الأصوات وجمدت الشخوص وسكنت الأنفاس لسكون النسيم إجلالاً للقادم ورهبة للمقبل وما أسعدهم اذا أجاب على كل هذا باشارة من رأسه أو من يده ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفـه أكبر ضابط مصرى يكتب عنه ما يملى عليه من ملاحظاته ثم يركض جواده ملء فروجـه الى ملعب الكره بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب فى غيابه

ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان وقد أخذ منه الجهد ظنه منقلباً من احدى مواقع البوير غب عراك وصدام. وتعانق والتحام . وروغ وإقدام . قد رنحه الضرب وأثملته الحرب. يجر من ورائه رمحاً قد جمد عليه النجيع بعد ما سالت النفوس .

وتحين ساعة عودته الى مقر حكمه فيغير من زيه . بعد أن يقطع صدر يومه . على مائدة الصباح ثم يوافى ديوان نهيه وأمره ومظهر علوّ قدره. فيتربع فى دست جلاله فما سليمان على بساطه. ولا كسرى فى ايوانه . باكثر جلالاً فى الصدور ولا اشد رهبة فى النفوس . فاذا قعد للمظالم والاخذ للمظلوم من الظالم . فهنا لا تسل عن الميل والاجحاف وسل عن العدل والانصاف. والويل للمصرى يستعدى

عليه الزنجى . الحاكم الانجليزى . فانه مدفوع به الى أقصى درجات العقاب . قبل انه يعلم الاسباب . فاى مصرى لايفتا يضرع الى الله ان يصبغ لون جلده . بسواد جده . ليخطو الى السعادة هذه الخطوه . ويحظوعند القوم بتلك الحظوة

والانجليزى فى الجيش مشغوف بحب الأسود من الالوان عامل بقول الشاعر الحكيم

وماكل وجه ابيض بمبارك ولاكل جفن ضيق بنجيب

ولو انه انقلب الى بلاده فى عهد الحرب البويرية الرأى مايروق لعينه فيها من تلك الخرق السوداء خرق الحداد التى تتجمل بها الاذرع هناك وقلما ترى العين ذراعاً غفلا منها منذ كانت الحروب الترنسفاليه . فليسأل الله دوام تلك الحروب ليدوم عليه وعلى أمته سوادها وهذا اديم الليل فليقدوا منه مااستطاعوا اذا اعوزهم النسيج وعزت الالوان

ثم يعود الى داره فينغمس فى حوض من الماء فاذا تم ابتراده فيه تحول عنه الى المائدة حتى اذا امتلأ عمد الى مجلس الشراب واسترسل فيما هو فيه الى قبيل تطفيل الشمس ثم يفزع الى بارودته فيحتقبها وينطلق للتصيد فى الأودية والغابات وخلفه الكلب والخادم

ولا يعقب حتى يلوح سهيل

هذا كل مايفعله الانجليزى فى يومه وهذه عيشته وتلك حالته

اما الجندى الأشقر . صاحب الرداء الاحمر . والعيش الاخضر . والطالع الازهر . فعيشته اعجب . وسيرته اطرب

يؤتى به من جيشه وهو من عامة الجند فيه عاطل الذراع . خفيف المتاع . فاذا قدم مصر ليلا أبى ان تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيسا لمكتب أفرنجي يعنو لأمرته كل من فيه من مترجم وكاتب ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء وتفتح أبواب الخزائن فيمنح من النقود ماشاءت القوة ومن النفوذ ماشاءت السياسة حتى يصبح محل الثقة وموضع السر ومحور الاشغال وقطب التنقلات ومركز التغيرات . فلا يبرم الحاكم الانجليزى امراً دون استشارته فاذا دخل فيه العجب وغلب على نفسه الزهو نظر الى المصرى تلك النظرة التى اسلفنا نعتها فتتقاطر على بابه فئات المتزلفين وأرباب الحاجات فمن كان له به دخلٌ اوخاصة كان السعيد المحبوّ ومن صلى لغير تلك القبله كان الطريد المجفوّ

وأعرف واحداً منهم قد استطرد به جواد السعادة حتى أصبح قومندانا لحملة الجيش وآخر قد سما به سلم العز حتى أصبح

من السردار قاب قوسين أوأدنى وهو اليوم بالسرداريه واضع إحدي قدميه على العسكرية . والاخرى على الملكية تجرى على سن قلمه ارزاقهم . وتدور على طرف لسانه تنقلاتهم

قال الراوى ثم سكت قليلا واستأنف الحديث قائلا ولوانى حدثتك عن ذيل الثورة وماكان فيها من أمر الخائنين منالا ضفت الى عجبك من تغطرس الرؤساء استياءك من تدابر المرؤوسين

قال صاحبي وماعسى ان يكون ذلك الذيل . قال البائس مخزية أنى بها مضرى وماذا أقول فيه والزمان أكثر منه وفاءً بالعهود خرج من الثورة خروج القدح المنيح فكبر عليه الامر وقد كان ليث كتيبة الجواسيس على يده خربت تلك البيوت فى شهر البؤس وبيده فتحت تلك الزجاجات فى شهر النعيم وهو أول من طرق الباب على كبيره وخبره بما سمع وما رأى وأول من دخل فى نسبة القوم فكانوا اذا ذكروه وأعماله قال مارأينا غرابا أشبه بغراب من هذا بنا

قال فى نفسه لقد زجرت يد القدر طيرى بالنحوس ونسى القوم ماقدمت يداى . وماكان اشبهنى بالعافية تذكر عند المرض حتى اذا زالت عوارض السقم سن صاحبها ذلك الذكر

فوالذى جعل إبليس من المنظرين لآتين عملا تأنف الحفظة ان تكتبه عليّ. ولأعقدن عقدة تحل لها العزائم فما حقد الخصيان على الفحول . بأبرى للصدور من حقدى على هؤلاء الذين فازوا بنعمة المكافآت دوني

ودخل بيت كبير الجيش وهو ظالم لنفسه قال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين

منذ حول دعانى سلفك وقد نمى الية ان جماعة من المصريين ممن ينطوون لكم على غير الجميل قدقاموا بتاسيس جمعية وطنية تحت كبير من ولد اسماعيل باتت تظلله القلوب وتحرسه الخواطر

قاموا بتأسيسها منذخمسة اعوام وأخذوا فى الدعوة اليها حتى اتسعت هالتها وهالنى أمرها ثم أمرني بالغوص على أسرارها والوقوف على أمرها فقمت بتنفيذ مشيئته ومازلت اخالط الضباط وأنافى لباس من الرياء والتظاهر حتى ظفرت بصديق قد آنس الى صحبتى وسكن الى مودتى فاكثرت من مسايرته ومجاملته وسرت أطارحه حديث الوطن وابتهل الى الله ودموع الخداع تتناثر على خدى ومازلت به حتى سللت نفسه . واختلست لبه . فشفت لى سرائره وأحطت علما بما فى قرارة نفسه وتناولت ما وراء ضميره

فعلمت انه فرد من افراد تلك الجمعية فاسترشدته فارشدنى . وماكاد يستقر فى نفسي هذا العلم حتى عدوت لا الوى على شيء . فطرقت بابها وساعدنى الجد فغشى الله ابصارهم وطمس بصائرهم فافسحوا لى بينهم مكاناً وأقسمت لهم يميناً وما زلت بهم حتى استفرغت أسرارهم واستبطنت امورهم ووقفت على ورقة التراسل بينهم وماهى الاأن سقطت فى يدى حتى تمنيت لو مسخنى الله طائراً فطرت لساعتى ووقعت في حجر ذلك الكبير . ولما أقبل الليل فى لون صحيفتى رغت روغة فاذا أنا أمامه فرفعت اليه كل ماوصلت يدى اليه من اخبارهم فسر حتى عجز عن مداراة سروره

وحال الحول ولم أعلم شيئاً عن أحوالها وكأنه طوى كشحاً عنها وتثاقلت أنا الآخر عن تعهدها حتى وقعت حادثة الذخير فقلت فى نفسى مالهذه الحادثة بدٌّ من سبب فأطلت البحث فمازال يقتادنى حتى وقف بى على باب تلك الجمعية واكبر ظنى اليوم انها ام لتلك الحوادث فصحت عزيمتى على لقائك واطلاعك على باطن الامر حتى تحتاط له ولازلت صاحب النظر الأعلى فى الامور

وخرج من عنده وما أدرى كيف لم تغربه الارض ولم ترجمه السماء ولولا انى أعلم ما أعد الله له فى لواحة البشر من آجل العقاب

لعجبت من حلم الله . فسبحان من وسع حلمه كل شيء فلقد أجل عقاب هذا الأثيم الى يوم لا تنفعه فيه شفاعة العميد ولا تغنى عنه أساطيل القوم شيئاً يوم يسبح معهم فى بحر من العرق كما يسبح اليوم فى بحر من الغرور

قال الراوى ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبي حسبك ماذكرت من أمر القوم فانى أراك تهم بذكر ماينبغى ان يدرج فى أثناء النسيان فان كنت لا تزال تعاظم الناس بمصيبتك فهؤلاء أهل دنشواى قد نسخ ما نزل بهم من العذاب كل ماسلف من أعمال القوم منذ حرقوا (جان دارك) الى يوم اصلوا أهل الأزهر النار. وألقوا بمقاليد الامر الى هذا المستشار . فما تلك بيمينك أيها الموتور — قال صحيفة المؤيد ولقد أبرد غليلى ماكتب صاحبها اليوم من تلك الحادثة النكيرة

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراء أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة وهى لا توجد مع الضعف فى شيء غير متعدد ولو بالاعتبار

أما نحن فنقول أن العنف قد يكون مظهرا كبيراً من مظاهر الضعف وخصوصاً فى سياسة الامم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فانها لاتكون فى الشخص الا حيثما يذهب شىء من فضائله ومزاياه فيحمل الكبر بهذا الفرع ليكمل صاحبه علاء فى زعمه

وخذ الشراسة مثل فى بعض الناس فانها توجد حيثما يعوز المرء شىء من مزايا حسن النظر وضبة النفس وسعة الصدر فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد اضيق الناس صدوراً من يسب غيره وأقلهم مقدرة على الاقناع الخطابي من يصيح فى وجه محدثه ليحمله على قبول رأيه

كذلك العنف وقوة البطش فى حكم الامم يحل محل حسن السياسة وقدر المسئولية قدرها فى كل عمل . وقلما ترى سياسياً محنكا قادراً على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدماتها الا كان عادلا حليما بعيداً عن فعال الظالمين

* * *

لاتذهب بالقارىء بعيداً بضرب الامثال عن الموضوع الذى نحن بصدده . فهذه مصر يدير دفة سياستها وادارتها المحتلون من الانكليز منذ ربع قرن وهم يقلبونها على كل وجه من وجوه النظام

محواً واثباتاً وتبديلاً وتعديلا ورفعاً ووضعاً فلم تكن امة ألين عريكة وأطوع فى يد العامل منها تشكر حسن الصنيع وتصبر على الاساءة ولو كان اللورد كرومر فى غير مصر لمج السياسة وملّ أن يقيم فى قطر واحد مثل هذا الزمن الطويل حتى قيل انه فضل مراراً أن يكون قنصلا جنرال فى مصر عن ان يكون سفيراً لدولته فى أعظم العواصم الاوروبية بل فضل هذه الوظيفة على أن يكون عضواً فى وزارة الاحرار ولوشاء ذلك لحفظ له مركزه فى الوزارة الحاضرة

— وماذلك الالانه فى مصر يعمل كالملك المطلق الارادة لايشوش عليه مشوش من المراقبات الشديدة ولاينغص عليه منغص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر هادىء البال قرير العين بهذا السلطان القوى الذى يديربه دولاب الحكومة المصرية وقدلقى من الامة مهاداً طرياً ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ومن الوزارة استسلاماً ليست العبودية أوفى منها فى العبد لسيده

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج الى الاعوان الذين يساعدونه . ومن عادة الملوك أن يختاروا في كل دور من أدوار حياتهم الاعوان الذين يوافقون الظروف . ففى دور كان مع اللورد كرومر أعوان مثل الجنرال غرنفيل فى الحربية والكولونيل

منكريف فى الأشغال والسير سكوت فى الحقانية والسير ادجار فنسنت أو بالمر وملنر أو غورست فى المالية ثم الداخلية

وفى دور كان معه المستر ماتشل فى الداخلية والمستر كوربيت فى المالية والمستر دانلوب فى المعارف وهلم جرا

ولا خلاف فى أن هـؤلاء يختلفون كفاءة كما أنهم يختلفون استقلالا فى الرأى مع اللورد . بل مما لا خلاف فيـه أن أعوان جنابه فى هـذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أو صغيرة جداً ثم ترقوا بحسن عناية اللورد وعظيم رعايته فله عليهم يد الفضل أكثر مما لهم عليه من يد المعونة الكبرى

والزمن الذى كان السير سكوت لا يقبل كل رأى يشار عليه به من الوكالة الانكليزية فى التشريع والقضاء . ويقول ان النظامات القضائية لا تحكي بناء القناطر وتشييد الجسور قد ذهب بذهابه . وجاء الزمن الذى يضع فيه أساس الادارة الداخلية فى البلاد كلها ويقول بضرورة الانقلاب العام واحلال العنف فيها محل العدل من كان قبـل بضع سنوات ضابطاً عسكرياً صـغيراً يؤدى وظيفة عسكرية محضة

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ولكن نقول بالاجمال ان الذين

يتولون ادارة البلاد الآن أعواناً للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة وخبرة كبيرة بأحوال البلاد حتى يكونوا بعد ذلك منظمين مصلحين ولا يمكن أن يكون اللورد عاملا بذاته فى كل مصلحة لان المراقبة العامة تشغله عن المراقبة الخاصة . فاذا حدثت حادثة غير منتظرة فى البلاد حالت بينهم قلة الخبرة وبين تكييفها بحقيقتها فأعطوها غير حكمها وبنوا على حدوثها تغييراً وتبديلاً فى النظامات قد يبعدان بها عن محجة الصواب بعداً شاسعاً . وكلما سأل جناب اللورد واحداً من أولئك الأعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر ما يعلم بالرأى الفطير فأمره بناء عليه بما يأمر الطبيب ممرضاً يخطيء فى أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الأعوان على غير خبرة كافية منهم وبالأوامر المطاعة من جناب اللورد كرومر . وحيث اختلفت حواس السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الاشياء

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن فى ادارة البلاد وعيوب هذه الادارة تزداد وضوحا يوما بعد يوم فيوجد فى عناصر الساسة المصرية الآن فراغ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد

سـده بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تحكم به البلاد .
ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وجد ناقصاً فى ذاته نقصاً يقولون ان طبيعة البلاد اقتضته واللورد كرومر فى هـذا المعنى فلسفة طويله عريضة فى عدة أبواب من تقريره الاخير حكم فيها حكماً قاسياً على استعداد الامة وقلة استعدادها للنظامات الدستورية الـكاملة

وأضف الى ذلك الاختباط وسائط شتى تحيط بالوكالة الانكليزية وكبار موظفى الانكليز جعلت همها تأويل كل حادث فى مصر بما يوسع مسافة الخلف بينهم وبين المصريين وتحريف كل كلمة تكتب في الصحف المصرية بما يسوء سمعه حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير

فلو وجد محللون كيماويون سياسيون خبيرون يحللون عناصر الحوادث التي تحصل في مصر ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلا حقيقياً يردون به كل جوهر الى أصله وكل معلول الى علته وكل نتيجة الى مقدمتها ؟ — ولو وجد من الانكليز فى وظائفهم من لايخدعهم تحريف المحرفين ـ والمحتلون أكثر الناس انخداعا بزخارف المموهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً ـ لما انعكست آية ما بين ابناء البلاد وأولئك المسيطرين

* * *

انعكست تلك الآية الى حد أن يظنوا ان حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الدينى القائم الآن بين المصريين والاوربيين وهو ظن باطل ان لم يكن خطأ مقصوداً بالذات لتخفيف شناعة مافعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأى العام الانكليزى

والقارىء لما نشرناه اليوم نقلاعن جريدة التيمس يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجا فى البرلمان وهو يسئل عن نقط كيفية تنفيذاً الحكم على الصورة الفظيعة التى حصل بها فلا يجدله جوابا سوى أن يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم جهار نهاراً على مرأى من أهل المحكوم عليهم نساء ورجالا ؟؟ . سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يشنق المحكوم عليه بالاعدام ثم يبقى معلقاً على مرأى من بقية المحكوم عليهم به وبالجلد حتى يجلد أثنان ؟؟ . ـ سألوه هل حقيقة كان الشنق والجلد على مرأى من الاهل يبكون والنساء يندبن ويعولن ؟؟

سألوه هل كان التنفيذ بواسطة الكبتن متشل مستشار الداخلية (لانه لايزال برتبة كابتن فى الجيش الانكليزى) وقد وصفوه وصفاً مهيناً جدا كما يرى القراء فى محضر جلسة البرلمان المنشور

اليوم نقلا عن التيمس

سألوه أشياء من هذا القبيل فكان لا يستطيع أن يجيب بالايجاب وهو يعلم أن كل ما سألوه اياه واقع لا ريب فيه . وكان كل مايقدر عليه فى هذا الموقف الحرج أن يعد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية فى ذلك - ولو اجابهم بالايجاب فى ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة وساء حال كبار المحتلين فى مصر بما لا يعلم الا الله نتيجته

* * *

على ان اللورد كرومر وجد من هذا المضيق الخطر فرجا له ولوزير الخارجية فى جلسة تالية فاتهم الامة المصرية كلها بالتعصب الدينى على الاوربيين . وقال ان عمل الحكومة المصرية فى حادثة دنشواي كلها كان عملا استثنائياً اخماداً لثورة خفية فى الطبقة النازلة من الامة وهدد مصر بعملات جائرة ربما اضطرت لها الحكومة اضطراراً . وكان هذا ختام فصول الرواية فى البرلمان الذى ترجح عنده الآن ان الامة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواى وحدهم . وان مركز الحكومة المصرية يحف بالاخطار الهائلة ان لم يطلق لها السراح للنهاية فى استعمال كل ماتريد استعماله عند الحاجة مخالفاً

للدستور ولطرائق الأمم المتمدنة

* * *

ما الذى أوجب اللورد كرومر أن يدافع عن نفسه وعن بقية أعوانه فى البرلمان بهذا السلاح الخطر المضر بمصر وأهليها ؟؟

ما الذى أوجب القائمين بادارة مصر الآن أن يلجؤا الى هذا العنف المودى بأهليها اتهاما ؟؟

ما الذى اضطر ناظر الخارجية أن يهدد الأمة المصرية فى مستقبلها مثل هذا التهديد ؟؟

أوجب ذلك كله ضعف فى سياسه القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد

ولكن حنانيك أيها اللورد الكريم وعطفا أيها العامل المصلح الذى ماعهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح وانصافا أيها الرجل الشريف النزيه الذى لا يرضيه أن تضحى مصلحة أمة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه — أن يخدعك عجز أعوانك فتحكم خطأ على أمة كتبت صحف تاريخك فيها بيضاء فتعكسها آية انتقام لامحل له منك بما تجره عليها من الويل والثبور فى مصير الأمور

ولما انتهى من القراءة قال صاحبي لقد أحسن الكاتب وأصاب

الناقد فغمز بقلمه مكامن الضعف من تلك السياسة وحسبنا الساعة ماسمعناه على أننى لا أرى رأيه فى النعى على هؤلاء المحتلين فيما يذهبون اليه من مذاهبهم في ضروب الاستعمار وفنون الاستثمار. أنهم دخلوا فى الارض أصابوا فيها أنعاماً سائمة فاكتسحوها . وقطعانا سارحة فاغتنموها . ولو أنهم أصابوا نفوسا تشعر وأعصابا تحس لما بلغوا بها المبلغ الذى تراه

أرأيتك كيف يجمل بهم وهم أبطال السياسة وفرسان الدهاء ان يوقظوا بايديهم هؤلاء النيام . أو يحركوا بقوة العلم هذه الاصنام. فمن ذا الذى يقف بعدوه على سبيل الرشاد أو يمهد لاسيره طريق الفكاك . انما تملك شمائل الانبياء وخلال الاصفياء لافرق عندهم بين العباد. فى سبيل الهداية والارشاد . قرأت فى قاموس وضعه أحد الحكماء من شعراء فارس ألبس فيه الحكمة ثوب الهزل لترغب فيه العامة ولا ترغب عنه الخاصة فكان مما استوقف نظرتى . ولفت فكرتى . قوله فى تفسير لفظة النبى (فسرها بالمحب لأعدائه) وانك لاتجد فيما أعلم بين هذا الناس مهما اختلف القياس من يحب عدوه ويرجو له الهداية اللهم الا تلك الطائفة التى اصطفاها الله فنزهها عن الاغراض وطهرها من الاحقاد والقوم ليسوا بحمد الله من تلك

الطبقة حتى نحسن الظن بأفعالهم ونريدهم على أن يعملوا على صلاح عدوهم فلا تعضنهم بأنياب الملام ودعنا الساعة من ذكر السياسة فاننى أخشى أن ترتفع أذيال الظلام قبل أن نقضى اللبانة من رؤية تلك المراقص

ثم ودعناه وعطفنا على المرقص فما هو الا أن أحلّنا حتى نظرنا فاذا أمرأة نصف قد تبذلت فى لباسها حتى خرج بها التبذل عن أفق الحياء تكاد تتزايل من فرط التمايل اعضاؤها وينعقد من شدة التهييف خصرها فهي تلتوى التواء الحية الرقطاء وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء فأجال صاحبى نظرة فى انحاء المرقص ألمت بجميع مافيه ثم دعانى الى النهوض فنهضت وماكدنا نجاوز الباب حتى أنشأ يحدثنى فقال وهو يخافت من صوته إنى نظرت فما كاد يرتد إلى طرفى حتى ألممت بجميع مايقع بين تلك الجدران من أسرار هذه المخازى العصرية . قلت وماعسى ان يكون قد كشف لك منها فى هذه اللمحة اليسيرة والنظرة القصيرة ؟ قال رب نظرة عجلى تنقطع دونها سوابق الافكار . وتنكشف أمامها غوامض الاسرار .

نظرت فى تلك الصفوف فلم الح الا رؤوساء مصرية وأزياء شرقية ثم نظرت فاذا الذى يحمل المدام . ويقف موقف الغلام لايخرج

رأسه عن أفق تلك الرؤوس ثم تنقلت بالنظر الى الناقر على الدف والنافخ فى القصب وحاضن العود وحامل المبذل وصفعان القوم فاذا كل أولئك من أولئك ثم أسرعت باللمح الى تلك النسوة المتبذلات . فاذا جميعهن من المصريات فأحزنتنى الحال وزادنى حزنا أن رأيت ان المحتلب لهذه الجيوب والذاهب بتلك الارباح رومي غير مصرى

فهب أن المصرى قدأعياه أمر النزوع عن تلك الشهوات أفلا يعرض له فكر الانتفاع بما يقع وراءها من المنافع وإسترداد هذا المال الضائع عجبت له أيذهب هو بالاثم. ويذهب بالمنفعة سواه . فماضره قاتله الله لوضم تلك الى ذاك . فقام بعمل الرومى وخرج من جدث هذا الجمود ونفض عنه غبار ذلك الخمول .

قلت لقد أصبت مواقع الرأى ولـكن الذين تطول ذلك ايديهم من ابناء وادى النيل ليشمخون بانوفهم عزة عن معالجته لانهم يرون ان العار كل العار فى النزول بالنفس الى تلك المنزلة وسيدى يعلم نفعنا الله بعلمه ان هؤلاء المصريين وان تقلبت بهم أحوال غير جميلة فسلبوا من الهمة بقدر مارزقوا من الخمول لايزالون يحفظون فى ثنايا النفوس بقيمة من شمم الآباء . ويخفون فى قرارتها صبابة من ذلك الاباء ولذلك ترى المصرى كائنا من كان يؤثر حبس ماله عن استثماره

والانتفاع به فى أمثال هذه المخازى .فسلوته على ما أرى قد أصبحت فى الحرص على حياة تلك الذكرى فى نفسه فانك لاتجد فى خلق الله من يسرك مظلوما من غيره ويرضيك ظالما لنفسه اللهم الا هذا المصرى المسكين على ان سيدى حفظه الله قد نظر الى الامر نظرة عمرانية فعز عليه أن يرى المصرى مأكولا غير آكل وقد ألم صاحب المنار الأغر بما نحن فيه فكتب في ذلك وأبدع

وقال صلى الله عليه وسلم « لعن الله شارب الخمر وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه وآكل ثمنها » وقد احتمل أكثر المسلمين فى مصر كل هذه اللعنات الا اللعنة الاخيرة فانهم حملوها للأجانب وأعطوهم أجرة حملها الملايين من الجنيهات والالوف من الفدادين

قال صاحبي ألا ترى أننى كأنى نظرت الى ما كتب بلحظ الغيب وهذه أمة الفرنسيس وهى أعرق الأمم مدنية وأقدمها حضارة لايزال يرى فيها الرائى من المخازى العصرية أضعاف مايجده فى أمة النيل ولكن افراداً منها قد انبروا الى التقاف ماتطوح به أيدى المستهترين فى مهاوى تلك المخازى فلا يكاد يخطئهم دينار أو يفلتهم درهم وقل أن يذهب الغريب فى بلادهم بغير الصدأ من تلك النقود

قلت لقد أجمع المشتغلون بعلوم الاقتصاد على أنه ينبغى أن تترك الأعمال لأربابها فاذا نظروا إنسانا مضطلعا بعمل من الأعمال نابغاً فيه تركوا له أمر الاشتغال به لينتفع وينفع . علموا ان الرومى لايجارى فى حسن القيام بشؤون المنتديات والمراقص وأنه لايبارى فى الصبر على احتمال ماهو فيه فافسحوا له فى بلادهم مكانا وكانوا له عونا على انتشار صناعته .

هذه باريز على تسابق أهلها وتناحرهم فى شؤون الحياة لاتزال ترى في هنّا وثمّ منها أماكن للاروام بديعة النظام لا يزاحمهم فيها مزاحم اللهم الا نفر من أهلها قد أودعت فيهم طبيعة الاستعداد الرومى فشاركوهم فى صناعتهم وصابروهم على احتمال ذلها .

قال صاحبى كان يكون ذلك شبيها بالحق فى أمم الشرق لو أنهم تركوا مالا يضطلعون به وأخذوا فيما فطروا عليه من الاستعداد بالقيام به ولكنهم تركوا كل شىء وزعموا انهم عنه عاجزون . ظنوا بهذا الغربى الكمال فألبسوه ثوب الاجلال وغلوا أيديهم عن تناول مايطمح اليه نظره وحبسوا أفكارهم عن السبح فيما يسبح فيه فكره قلت إنى أرى مولاى قد قتل شؤوننا بحثا فليس لى فيها ما أقول .

ومرت بنا فترة ونحن سكوت حتى اذا صرنا أمام قصر فسيح

من قصور الأغنياء قد خيم عليه الديجور وسكن سكون القبور

نظر الى صاحبي نظرة أدركت مغزاها فقلت إنه قصر لغنى همه الجمع . وشيمته المنع . فهو لا يخشى المعره ولا يعرف سبيل المبرة وقد بلغ من حرصه على الدانق والحبة انه اذا أغلس استصبح فى داره بالنجوم لذلك لا ترى فى فنائها قنديلا ولا يعرف الطارق الى بابها سبيلا

فلو يستطيع لتقتيره * تنفس من منخر واحد

على أنه قد أفنى ثلاث عمائم ألوانا فوقف على أبواب الفناء وهم سراج حياته بالانطفاء .

قال صاحبي عجبت لهذه الحكومات تسرع بالحجر على السفهاء من المبذرين وتتثاقل عن الحجر على هؤلاء المبخلين قيل لعمر بن الخطاب قد جمع فلانا مالا . فقال وهل جمع له أياما . ويلى على هذا الغنى تنفق من عمره الايام . وتهدم من بناء هيكله الليالى فتسهل عليه النفقة من عمره وتعز عليه النفقة من ماله ولو أنصفت الحكومات لسارعت بالحجر على أمثال هذا الغنى البخيل . قلت هب ان تلك الحكومات قد قلت ليت المشرعين الذين يتفننون فى أساليب مايضعون يقفون لمحة امام هؤلاء الاغنياء ليعلموا أن الشرائع التى وضعتها يد البشر لا تزال فى حاجة الى الكمال

قال الراوى : ثم ساد بيننا السكوت ونمر بدار قدسطت عليها غياهب الليل . وخيم تحت سمائها الذل والويل. فيقول لى صاحبي لمن هذه ؟ قلت هى لرجل كان مكفى المؤنة فى دهره . مستور المعيشة فى عمره . فابى الا المتاجرة فيما يخرج عن الطوق فأكل الطمع منه رأس المال . ورده الى ما ترى من سوء الحال

قال صاحبي : لقد نظرت فى سواد هذه الأمة فلم أجد الا احد رجلين رجل ركّب فى طبيعته حب العمل وركّز فى طباعه التهور فى كل ما يأخذ فيه وهو لا يملك الا مائة من الذهب يرمى بنفسه فى غمار الأتجار بما يخرج عن طوقه فيسوقه التهور الى الاستدانة وتوسيع هالة عمله فلا يلبث ان تذهب بمائته المقاضاة - ورجل بنى على الحرص وفطر على الخمول وهو يملك الالوف فيدعوه الحرص الى حبسها ويقعد به الخمول عن استثمارها فلا هو ينتفع بألوفه ولا الناس تنتفع بوجوده . ثم حانت منه التفاتة الى السماء فاذا الظلمة تنجلى عن أطرافها انجلاء الخضاب عن القذال الاشيب فصاح بى على رسلك ايها الصاحب فلقد أفجرنا . ألا تنظر بربك الى الأفق وقد نظم الفجر حواشيه فوضح للعين ما قال فيه . صاحب هذا التشبيه

وقد رفع الفجر الظلام كأنه ظليم على بيض تكشف جانبه

فانطلق بنا الى بيت من بيوت الله نقضى فيه الصلاة فانطلقنا الى مسجد قريب قضينا فيه صلاتنا ولم نبرحه حتى برحت الشمس خدرها فقلت له أعزم سيدى على الرجوع الى ابيه . ام على الاخذ فيما كنا بالامس فيه . قال انى ليحزننى ان اعود قبل أن ارى اسواق هذه الحاضرة وأقف على شيء من عاداتها قلت لله ابوك فما عدوت مافى النفس . ثم أخذنا طريقنا الى الغوريه وتباطأنا فى السير ريثما يتعالى النهار وتبتدىء الحركة فى الاسواق وكنت كلما حدثته فى شيء بهرنى واسع علمه . فماسألته عن أمر ألا أجابنى فظننت انه لايحسن سواه . فمازلنا كذلك حتى بلغنا المكان الذى نقصده وكان يومنا هذا طليعة لموسم من مواسم العام عند المصريين فماجت بهم الطرقات وغصت حوانيت التجر بالمساومين فاشرق وجه صاحبى سروراً وتألق بشراحين ظفر بضالته وأصاب مشهداً من مشاهد المجتمع البشرى تحشد فيه طبقات الناس فيجد الناقد السبيل الى نقد العادات والاخلاق التى يثيرها احتكاك ذات الصدور . ويبرزها تبادل ذات اليد. فيجتلى منها الباحث في علوم الاخلاق مايجتلى حتى اذا انقلب عن موقف اشرافه وموطن تأمله إنقلب مبرود الغليل جم فوائد الاطلاع .عزيز جانب الاقناع . فما لبث صاحبي ان رمى بنفسه في غمار هذا الزحام

وتعقبته اكاتف مرة وازورّ أخرى حتى خلصنا الى مرقب يمكننا من الاشراف ثم أخذنا نتأمل فى سواد هذا الناس فاذا التجار منتشرون على أبواب الحوانيت واذا السلع معروضة للمساومة وقد جعل كل يبالغ فى تنفيق سلعته بضروب التمليق . وصنوف التزويق . فكان التاجر لايمر به مار إلا جذب بطرف ردائه واراده على الابتياع من حانوته مزينا له حسن سلعه ملحا عليه بالرجاء مقسما له بكل محرجة من الأيمان انه مادعاه الى ابتياعه لايوجد عندغيره وأنه ان فاته الظفر به فقد فاته الحظ واخطأه التوفيق

وكان كيسهم اذا ظفر بقدم من أقدام الريف حط عليه بانواع الدهاء ثم واثقه على ان يطرفه بانفس ماعنده حتى يثلج الرجل الى قوله فاذا علم انه سكن اليه بهره بطائفة من الفاظ الثناء قد خزنها فى رأسه وأدّخرها لوقتها . فلايكاد المسكين يفيق من نشوة الفرح بما سمع من الاطراء حتى يعالجه الخبيث بتعليق سلعة فى عنقه مشفوعة باخرى فوق رأسه معززة بثالثة تحت إبطه فلا يبرح الحانوت حتى تبرح الدراهم مخبأها فيخرج وقد انتفخت اوداجه من كثرة هذا النفاق .

وهبط كيسه من فرط ذلك الانفاق

وأخر قد تخلت عنه العناية ونام عنه الجدّ يمر به الصيد فلايحسن

القاء الحب لما ابتلى به من حب الصدق وكراهة تزويق الكلام فيقف سراة يومه يستقبل من أولئك الافدام وهم يلؤمون فى المساومة ويشتطون فى الطلب ويتعنتون فى توسم السلع حتى اذا قلبوا احشاء الحانوت قلبا خرجوا كما دخلوا لانهم لم يأنسوا فى رب الحانوت ما اعتادوا ان يسمعوا من صنوف التمليق

قال الراوى ولبثنا فى مرقبنا هذا حتى سامتنا الشمس ووجدنا مسّ الهجير فأومأ صاحبى الىّ بالمسير فتسللنا من تلك الجموع حتى انتهينا الى مكان قد حجبت شمسه وأطلق سراح نسيمه فهاج فينا روحه شجون الحديث فانشأ صاحبى يقول

حكي ان أحد الملوك ارتأى أن يفتح مدينتين على حدود ملكه فكاشف فى ذلك أحد وزرائه وكان حكيما مدربا فضرب الوزير برأيه فيما أفضى به اليه الملك ثم قال له اذا رأى الملك أيده الله قبل المخاطرة بالمال والرجال أن نعلم علم القوم فنخرج فى سرّ من الناس فاذا خالطناهم وعرفنا أوزان رجالهم ومقياس أخلاقهم هيأنا لهم على قدر ما نرى منهم فأخذ الملك برأى الوزير وانطلق اثناهما فى زي العامة حتى بلغا احدى المدينتين فى ضحوة من النهار فعمدا الى سوقها الكبرى وعطفا على حانوت هناك قد نظمت فيه صنوف الاقمشة

فجلسا الى ربه وطلبا اليه عرض سلعة سمياها له فقال لهما التاجر لقد كان فى يدي شيء كثير مما تطلبان ولكنه قد نفذ منذ اليوم وأظنكما لا تصيبان منه فى غير ذلك الحانوت وأشار لهما الى مكان فى زاوية من السوق فلم يأخذا بأشارته وعمدا الى تاجر آخر فكان نصيبهما منه نصيبهما من الاول فقصدا ثالثا فكذلك. فعرجا على رابع فكذلك. وما زالا يتنقلان من الحوانيت ولا يظفران من أربابها بغير تلك الاشارة حتى ضاق الملك ذرعا فكر راجعاً الى أول من لقياه وقال له مالنا كلما عطفنا على أحد من تجاركم واردناه على ابتياع سلعة من سلعه أبى علينا البيع وصرفنا عنه . بربك إلاّ ماصدقتنا خبر تلك الاشارة . قال التاجر أما وقد أقسمت فاعلم ان صاحب الحانوت الذى حاولت صرفكما اليه قر مرت به ثلاثة أيام لم يطرقه فيها طارق بخابئة خير ولم يفتح عليه بشيء من الرزق وقد أدّر الله لاهل السوق أخلاف الأرزاق فكرهوا أن يصبح صاحبهم ويمسى وهو علي غير حالهم من التيسير لذلك تراهم يطلفونه بالطرّاق لعله يصيب مايصلح به حاله ويقوت عياله

قال الملك بارك الله فيكم وعليكم ثم أسرع الى ذلك الرجل فأبتاع من سلعه وقر بعير حتى كاد يأتى على مافى الحانوت وتركه وقد انساه

ربح يومه مامر به من كساد تلك الأيام

قال الراوى : ولما خلا الملك بوزيره قال له ماالذى وقفت عليه من أحوال القوم قال الوزيران من لبسهم على ظواهرهم راقه منهم ذلك الأدب واعجبته تلك المصافاة ومن أستبطن امورهم وقف منهم على مروءة لاتكون فى غير الرجال وقناعة لاتسكن فى غير النفوس العالية يسكو ذلك منهم حسن الاتحاد ويزينه الأيثار ولا احسبنا بالغين منهم مانريد حتى نركب الصعاب . ونقاسى العذاب . على ان سكان هذه المدينة لايربو عددهم على عشرة الألاف

ثم انطلقا الى الثانية فاذا بها تموج بسكانها فوقفا فى سوقها الكبرى وقفة كان فيها الغناء عن كل شيء . كشف لهما من اخلاق القوم ماكشف لنا اليوم من أخلاق اهل هـذه الحاضرة فآنسا منهم الاثرة مكان الايثار . والتدابر مكان التكافل . فلم يلبثا ان كرّا راجعين وماهى الادورة من دورات الفلك حتى خفقت راية ذلك الفاتح على اسوار تلك المدينة وامتنعت عليه الصغيرة حتى هم بالانصراف عنها لولا حيلة دبرها الوزير فكان فيها الفتح

ذلك مثل المـدينتين فانظر الى أهل هذا البلد واعلم انهم يتناصرون ولـكن على التخاذل ويتعاونون ولـكن على تسويد الغريب

فهم لا يملكون لانفسهم الا الضر حتى اوشك ان يصح فيهم قول كاتبهم الكبير (١) عفا الله عنه « هذا بلد لا يخاف المرء فيه الا من نفسه » وطيب الله ثرى فقيد الاسلام الاستاذ الامام فقد سمعت عنه كلمة من ماثور القول افرغتها الحكمة فى قالب الاختبار « هذه الامة حياتها فى موتها » قلت وعلى ذكره رحمه الله أروى لك عنه مايكشف عن اعتقاده الراسخ فى أفراد هذه الأمة ـ صحبته مرة فى أحدى روحاته الى عين شمس وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام وكنت اتبسط معه على الحديث فكان مما ذكر لى فى هذه الليلة انه القى اليه كتاب كتبه صاحبه وابليس جاثم بين كتفيه ينذره فيه بالقتل ويتوعده بالاغتيال ـ ذكر لى ذلك كمن يذكر نبأ من الأنباء التي يسوقها الحديث فلم ألمح على وجهه ماينم عما وقع فى نفسه من أثر ذلك الكتاب ثم خاض فى غير ما أخذ فيه حتى انتهينا الى طريق مقفر قامت على عطفيه طائفة من النخيل وكان لابد لنا من ركوب ذلك الطريق للوصول الى الدار . فسرينا فيه تحت الليل والظلمة تقبض البصر . وتدعو فى كل خطوة الى الحذر . فقلت له وهو يخوض فى أحشاء الظلام الا يخشى مولاي حرسه

(١) المرحوم ابراهيم بك المويلحى

الله أن يقوم صاحب الكتاب بالوفاء فيكمن له فى لقمة من لقم هذا الطريق ويبلغ منه ما بلغ أبو لؤلؤة من الفاروق فيطعن الاسلام طعنة ثانية . تذهب بهذه البقيه الباقية . فنظر الىّ نظرة لمعت فى تلك الظلمة لمعانا ساورتنى منه الهيبة وقال لى أين يذهب بك يا بني فتالله انى لاهنىء نفسى اذا وجدت فى هذه الأمة من يقدر أن يقول لى أخطأت فى وجهى فكيف بى اذا وجدت من يقوى على رفع يده لقتلى ..

ذلك كان اعتقاده فى أمة وادى النيل ولم يكن رحمه الله منفردا بهذا الرأى فقد سمعت غير واحد من الحكماء والادباء يبالغون فى وصف مانحن فيه حتى وعيت عن بعضهم كلمة مادرى صاحبها بأى درة رمى (لقد نزلت هذه الأمة منزلة من الخمول هبطت بها الى مصاف العجماوات حتي خشيت أن يخطئها البعث فى يوم البعث) فما ظنك ياسيدى بأمة أصبح بعضها يخشى عليها أن لاتحشر مع الأمم اللهم ان هذا منتهى أمد الخذلان . موت فى الدنيا وموت فى الآخرة ثم قمنا الى مسجد فقضينا فيه الصلاة وعطفنا بعده على مطعم فتناولنا مانمسك به الرمق واستأنفنا المسير وبينا نحن فى طريق عابدين اذا لفيف من التلاميذ يهرولون وهم من أمرهم على عجل واذا لفيف آخر على آثارهم فقال لى صاحبي مالي أراهم يسرعون والى أين هم ذاهبون

قلت انهم يؤمون الاحتفال الذى تقيمه نظارة المعارف للألعاب فتتسابق فيه التلاميذ تسابق الجياد ويتبارون فى الألعاب الرياضية كما يقولون وهو احتفال يشهده عميد الدولة الانكليزية ويتأنق فى تزيينه بطل رجال الانجليز مستشار المعارف المصرية ذلك الذى ابلى البلاء الحسن في قتل النفوس واستحياء الجسوم وجعل الجوائز السنية لكل سابق فى هذا المضمار لذلك ترى نظار المدارس لاهمّ لهم فى غير تعهد الاشباح . والويل لمن يعثر به الجد فى يوم ذلك المهرجان . فلا تفوز تلاميذه بجوائز الامتحان . ولقد بلغ من ولوع المستشار برؤية هذا المشهد انه يستقدم التلاميذ من أطراف البلاد فيجمع تلميذ رأس التين بتلميذ عابدين والطالب فى أسوان بمثله فى حلوان وحكومة البلاد تقوم بالنفقات . على هذه الملاعب وتلك التنقلات

قال صاحبى وهو ملق بسمعه الى ومقبل بوجهه علىّ لقد أحسن القوم صنعا فيما يحتفون به من ذلك ولا أحسبهم الا مبالغين في الاحتفاء بتعهد الارواح بعد تعهد الاشباح فيحسنون جوائز الناجح فى العلوم حتى يصح ما يتمثلون به من قولهم (العقل السليم فى الجسم السليم)

قلت لو كان ذلك كذلك لوجدنا سبيلا الى مزاحمة الاحياء وبسط كل رجاء فى اضطراب جده واسعاف ذات غيبه ولكنهم قضوا على

أحد هذين السليمين فاهتموا ببناء أسوار الابدان اهتمامهم باقامة الخزان وارتفاع الاطيان ومحو آثار تلك الاحتفالات التى كانت تقام بمدارس الحكومة على نفقة الحكومة يشهدها عزيز مصر فى حملة عرشه ورجال دولته وسروات أمته ويلطفون فيها الفائز . بكل سنية من الجوائز . فكان الطالب فى ذلك العهد يرصد هذا اليوم المشهود ويرتقب حلوله وهو منكمش فى الدرس مقبل على التحصيل مكب على التشمير فى أحد فروع العلم الذى يميل بطبعه الى النبوغ فيه حتى اذا حل يوم نخاره بين أترابه استقبله على عدة فيدخل فيه دخول المقدام الجسور . ويخرج منه خروج الفاتح المنصور

قال صاحبي اذا صح انهم يحتفون بالاشباح دون الارواح فقد أحسنوا القيام بالواجب فانما هم أعداء لكم وما رأيت قبلكم من طلب من عدوه صلاح حاله — فلا حياة لهذه الأمة اذا هى لم تستمد حياتها من سوادها فيقوم من أغنيائها من ينعم النظر فى صلاح شؤونها . بربك هل رأيت غنياً من هؤلاء الاغنياء أصبح وقد خصص شطراً من دخله لنصرة العلم فما لكم تنحون باللائمة على رجال الاحتلال وأنتم أصل ما أنتم فيه من البلاء — أوليس حسبكم منهم أنهم لا يضربون على يدى عامل . فما عساهم ان يصنعوا بكم اذا قام لفيف

من أغنيائكم وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية أو ماعساهم أن يصنعوا بكم اذا خصص هؤلاء الاغنياء جوائز للفائزين في العلوم وأرصدوا جعالات لكل بارع فى صنوف التأليف أو معرب لتلك التصانيف التى ضاقت بها رحاب المغرب وأقفرت منها مكاتب المشرق « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟؟» قلت لقد صدق الذى قال انما تصلح هذه الحكومة على ظلمها لتلك الامة على نومها

ثم أردت الترويح عن نفسى بالخوض فى غير تلك الاحاديث فقلت له ما الذى يراه سيدى بشأن تلك الشركة السودانيه التى خفق لها العلمان على اطلال أم درمان فالتفت الى متبسما وقال

وقف شريكان شرقى وغربى أمام المرآة وفى يد الغربى قطعة من الذهب فقال له شريكه الشرقى وقد تلطف . ألا تعطينى قسمى من تلك التى بيدك قال الغربي أما وقد أردت القسمة فاعلم ان التى بيدى هى لى وتلك التى تراها فى المرآة هى قسمك ونصيبك . ذلك مثلكم مع القوم فى شركة السودان . قال الراوى فندمت على هذا السؤال الذى أضفت به هما الى همومى ثم عزمت فى نفسى على الخروج من دائرة الكلام على السياسة والدخول فى باب المحاضرات

الادبية فقلت له ألا أحدث سيدي بأحسن ماورد على سمعى من الحديث قال ألطفنا بما عندك

قلت سكر أحد ملوك الفرس ذات ليلة وأحسبه قمبيزا فسأل جلساءه وقد علت الحمرة ذؤابته أينا خير أنا أم أبى فكلهم تزلف اليه بتفضيله على والده الا جليسا بينهم يقال له قارون وكان أكرمهم عليه . وأكثر توفيقا لديه . فانه قال له بل أبوك خير منك فغضب الملك حتى خافه الجليس على نفسه فعطف قائلا فضلت أباك لأنك كنت عنده وليس عندك اليوم من هو مثلك

وقد وقع لى ماوقع لهذا الجليس وركبت ذلك المركب الذى يرمى بصاحبه الى مواطن الشرور ـ قال صاحبي وكيف كان ذلك قلت جلست مرة على مائدة أحد الكبراء من رجال الانكليز فى الجيش وانا اذ ذاك ضابط صغير وكانت ليلة وداع لعظيم من عظماء القواد فى الجيش المصرى انطوت مدة خدمته فيه وقد شهد المائدة معى لفيف من ضباط الانجليز والمصريين وقد أجلسوا بجانب كل مصرى منا انجليزيا منهم يحدثه ويبأسطه وكانوا لايتنازلون الى الحديث معنا فى غير تلك الاحتفالات التى تطرح فيها أبهة الرياسة فأخذت فى الحديث مع جبار من جبابرتهم أجلسته المصادفة على يمينى وساقنا

الكلام الى ذكر الاتراك وما كان منهم فقال لى وهو يتكلف البشاشة أنحن خير أم هم ؟ فأجبته بتفضيل الاتراك وتالله انى ما كدت انطق بالكاف حتى رأيته وقد تمعر وجهه واغتاظ حتى كاد ينشق إهابه غيظاً فأحسست بالشر ولكنى عمدت الى الحيلة فعطفت قائلا فضلت الاتراك اذ لولاهم لما رأينا كم فهم أصل مانحن فيه اليوم من سعة العيش وبشاشة الحال فأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان قد نزل به من الغضب

قال صاحبي أولى لك فلقد نجوت من شر هذا الجليس بفضل ذلك الجليس . وما كدنا نأتى على هذا الحديث حتى دانينا فتى يتوكأ على عصا وهو لا يكاد يحمل بعضه بعضاً من فرط الهزال . وما تنطق به معارف وجهه من آيات سوء الحال يرد عن نفسه حملات الألم وصدمات السأم . بأناشيد أودعها من الانين . مايعلم به الصخور كيف تلين . فاستوقف هيكله أبصارنا . واسترعي صوته اسماعنا فاذا به يغني هذه الابيات

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتي بات ظلما منظما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وان أصبح المصرى حراً منعما
أعد عهد اسماعيل جلداً وسخرة ... فانى رأيت المنّ أنكى وألما

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طينا وأرخصتم دما

ولما أتى على نشيده دانيناه . وبالتحية بادأناه. ثم ابتدره صاحبي بالسؤال : لمن الشعر أيها الاديب ؟ قال لاحد شعراء الوقت . قال وهل ترى رأيه فيه . قال ومن ذا الذى يخالفه فيما يرتئيه . وقد نطق حقاً . ونظم صدقاً . قال وأين أنت من القوم؟ قال من أولئك الذى نقموا الرضا على العهدين . ولم يحمدوا مغبة الحكمين . عهد الدولة التركية . وعهد الدولة الانجليزية . ففى أولهما فاضت المظالم وغاضت الاموال. وفى ثانيهما أخصبت الارض وأجدبت الرجال قال وهل أنت فى خفض من العيش ؟ أجاب لا أشكو بحمد الله عسراً ولا أرجو يسرا . وانما أنا أتفيأ ظل هذا البيت العربى . لذلك الشاعر الادبى

مذبذب الرزق لافقر ولا جدة حظ لعمرك لم يحمق ولم يكس

قال وأين مكانك من العلم . وأين منك منزلة الحلم؟ قال حسبي انى من تلاميذ حكيم الاسلام . الاستاذ الامام طيب الله ثراه . وجعل النعيم مثواه . قال انى لأرى رأيا حصيفا . وأسمع قولا شريفا. فمن أى تلاميذه تكون فقد سمعنا انهم فريقان. فريق قد اختصه بسياسته وفريق قد اختصه بعلمه . وقد أثنى عليهما العميد . وتنبأ لهما بالطالع

السعيد ؟ قال لاعلم لى بما تقول. فلقد كنت الصق الناس بالامام أغشى داره . وأرد أنهاره . والتقط ثماره. فاسمعته يخوض فى ذكر السياسة قبحها الله . ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته . وينتقل بنا بين مناطق الافهام . ومنازل الاحلام ويسمو بأنفسنا الي مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شؤون الاجتماع وحاج العمران ووقف بنا على أسرار الحياة ولم يزل ذاك همه رحمه الله .

يلقى فى الأزهر دروس التفسير وفى داره دروس الحكمة حتى مضي لسبيله . فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا ويقسمون تعاليمه أبوابا . فتلاميذه حزب العلم والعرفان . وتعاليمه سياسة التقدم والعمران . على انه كان من أشد الناس تبرما بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها فقال عنها فى كتاب الاسلام والنصرانية ما قال

لكنه كان يحتك بها مادعت الى ذلك الحالة ويرصد حركاتها رصدا ـ ويصد غاراتها صدا . خشية أن تقطع على العلم سبيله. أو أن تقف عثرة فى طريق الفضيلة . ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه . وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه . فكم تلطف فى ابتزاز قواها. وتحامى جهده طريق أذاها . حتى اذا ظفر بطلبته . وفاز برغبته . واستمد

منها ما شاء . تحت حماية الافتاء . عطف على العلم بذلك الامداد. ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد . ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عاديته . ويفسد عليه سياسته . فى مصادرة العلم . ومصارعة الحلم . أما ترى بربك أثر ذلك فى المدارس . وما عبثت به يد ذلك السائس . ولولا ان الامام مادهمّ حبل الوداد. وجاذبهم فضل النصح والارشاد . لاصابه ما أصاب حكيم الأفغان . وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ويصلح ماتفسده أهل الدسائس . فكم زحزح عنا حادثا . ودفع كارثا . ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى دنشواى لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص ولما ارتفع صوت العميد . بذلك التهديد والوعيد . ولما نزع الى كتابة ذلك التقرير . الذى جاء أبلغ ماتملى الضغينة على الموتور . فكان فيه كثير جموح اليراع . ضعيف جانب الاقناع . كانه يكتب مقالة خيالية . الى مجلة سياسية . وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه

لحق النبى عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى . فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غض أمر الردة من شرف النبوة ولا نال من عصمة الرسالة

ولبث الاسلام اسلاما . ومات الاستاذ الامام رحمه الله فصبأ بعض حزبه كما يدعون واستغفر الله لهم مما يقولون فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ولا مس من سيرة ذلك الامام

أراد بعض مريديه أن يغني غناءه وأن يفعل شرواه فى التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنافرمى بنفسه فى أحضانهم وليست له مكانة الامام من نفوسهم ولا منزلته فى قلوبهم فقصر ولا بدع وأخفق ولا عجب فان الفراغ الذى تركه الامام لا يشغله الا لوف من اولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح . وينعون عليه مذهبه فى الاصلاح ولما ظهر ذلك المريد بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناس منه ذلك فطارت حوله الشبهات وانبسطت فيه الالسن وأخذته سهام الاقلام على أنه وان أخطأه التوفيق فى عمله فما أخطأه حسن القصد ولا جازته سلامة الطوية فوجد بعض المرائين السبيل الى تشويه سمعة الامام بعد موته وبالغوا فى ذم حزبه وزادهم ضغنا ان قرأوا فى تقرير العميد ماقرأوا وظنوا أن هناك حزبا يعمل ولو أراد الله خيرا لهذة الامة لسخر لها من تلاميذ الامام من يقوم بالدعوة الى التآم ذلك الحزب الذى أودع فيه الامام من أسرار حكمته ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذى أصبحنا نساق اليه سوقا أعجلنا عن النظر فى أمورنا فأمسينا أتباعا لكل ناعق

قال صاحبي وقد هاله ماسمعه أكان يكون بين ظهرانيكم أمثال أولئك الامناء على تعاليم ذلك الحكيم ولاتتعلقون باذيالهم على انى لاأرى فيكم الاناعيا عليهم مشهراً بهم فان كنت لم تكذبنى القول فتلاميذ الامام حقيقون باللوم لانهم يعلمون الحق ولا يدعون اليه علمو أن لاحياة لهذه الامة بغير الجامعة فمالهم لا يواصلون قرع أنوف الاغنياء بالمواعظ ويوالون الصياح بطلب تأسيسها فتلتقى اصواتهم بالنداء فى أنحاء القطر ولكنهم سكتوا. اللهم الاشاعرامنهم قدقرض قصيدة وقاضيا قدحبر مقاله فى سبيل الجامعة درج كلاهما فى أثناء النسيان فجمد الاغنياء عن البذل لجمود أولئك الوعاظ عن الكلام وتدفقوا فى انشاء الكتائيب حين ساقتهم الحكومة الى ذلك ولو علموا ان انتشار التعليم الناقص شر على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا فى سبيله ما بذلوا فكان مثلهم فى ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ليقع تحت براثن الليث لانهم انما يستبدلون بانتشار الكتائيب داء الجهل ولكن بداء الغرور فسبيل الاصلاح أن ينشأ الكتاب وتبنى الجامعة فى وقت معا حتي اذا أخرج الاول نصف انسان أطلعت الثانية انسانا كاملا فتكفل هذا الكامل بصلاح ذلك الناقص فتتماسك الأمة ويكثر فيها الدعاة الى الخير فليس بينها

وبين الحياة الا أن يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الافكار ويسلكون بها سبيل الرقى ومن رأى ازهذه الأمة لاتنهض الا بتعليم مجموعها وتهذيب أفرادها فقد أخطأ مواقع الرأى فكم نهضت أمة بفرد وأسست دعائم دولة على عزائم آحاد وفوا قسطهم من العلم الصحيح وأخذوا نصيبهم من الاقدام

وقد انصرف الى الصياح بطلب انتشار العلم ونسوا ان ذلك لايغنى عنهم شيئاً اذ أعوزتهم تربية القادة وعزهم بناء الزعماء فاعلم ان بناءة الرجال لاتكون الا فى بناء الجامعة

قال الاديب وهل يكفى العلم وحده لصلاحنا ونحن على ماترى من الخلق والدين . فسوق عن أمر الكتاب . وطاعة للهوى . فلا وازع من الدين ولا زاجر من الخلق فاذا تزعزعت العقيدة ولم يطمئن الطبع قل أن ينجع فى الناس علاج العلماء أو تأخذهم صيحة الخطباء

قال صاحبي . صدقت ولكن ماتراه أنت خطبا كبيرا لم يكن فى نظر الحكمة الا أمراً يسيرا وانى ذاكر لك دواء هذا الداء وهو أيسر مما فى نفسك فلا تنزل أمرى معك على المزاح ولا يصغرن فى عينيك مأتى ما ألقى عليك فرب مؤرب من العقد ضلت حله الحكماء واهتدت اليه خطرة من الفكر يرمى بها أحد العامة . وتغفل

عنها عقول الحامة . ولعلك اذا سمعت ان الدواء الناجع والعلاج النافع لا يحتاج الى مقدمات طويلة . أو فلسفة جليلة . أصغرت ما كنت تكبر . واستنزت ما كنت تستغزر . فاعلم انه اذا أقفلت أبواب المنتديات . وأطفئت أنوار الحانات قبل منصف من الليل . انحرف عنكم جارف هذا السيل

هذه لندرة لا تكاد ترى فى حوانيتها ساهرا . ولا تجد فى طرقاتها عابراً اذا انقضى الثلث الاول من دولة الظلام وتلك (ڤينا) يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى . ويحول الظلام بين الارجل والسرى . فاذا شب الليل أوكاد . سكنت حركة العباد . فما لكم لاتأخذون نفسكم بتقليد تلك الخلائق . وقد ائتمروا باوامر الخالق ومالكم لا ترجعون الى الفطرة البشرية . أوتخضعون لنواميس السنة الكونية . فتجمعوا فى ذلك بين الدنيا والدين . ولاتعقوا أوامر الكتاب المبين . ياويلكم أحييتم ليالى العمر بالآثام . وأمتم أيامه بالمنام . فعكستم الفطرة ولا بدع اذاعكست آمالكم وخابت أعمالكم خذوا مضاجعكم اذا طرشارب الظلام . واهجروها اذاتنفس الصباح ففي ذلك صحة لابدانكم . وسلامة لاديانكم

اذا شئت أن تعرف ماوراء ذلك من المنافع فانى أعدلك منها

ولاأعددها . منها الرجوع الى المعيشة المنزلية التى انحلت بزوالها روابط الاهل والاقارب ويبس مابين البيوتات فتناكر الاخوان . وتدابر الجاران . وأقفرت المنازل من أنس السمر والف الناس الجلوس فى المنتديات حتى انهم ليوحشون فى ديارهم لقلة زوارهم وأصبح المرء فى داره حاضرا كالغائب مقيما كالنازح يعلم من حال البعيد عنه مالا يعلم من حال القريب منه

ومنها اجتياز العقبات التى أقامتها المنتديات والحانات فى سبيل الاجتماعات — كان المصريون فى العهد الذى نسميه اليوم بعهد الظلام يجتمعون فى الدور ويتزاورون فى القصور وكانت سراتهم وذوو اليسار منهم يجلسون فى بيوتهم للسمر فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ويقصدها التاجر وينتجعها الاديب فتجرى بينهم الاحاديث وتقوم سوق المناقشات — يحدث الحادث فيخوضون فى ذكره وتنزل النازلة فيجمعهم الالم على العمل على ازالتها وتطل رءوس المشروعات فلا يفتؤون يتبينون معارفها حتى يقتلوا شؤونها بحثا ويقفوا على وقائعها جدالا وينزل باحدهم المكروه فلا يزالون ينطلقون بالسعي له حتى يأخذوا بيده وينهضوا به من عثرته — عقدت بينهم الزيارات . عرى المودات . فتراهم وهم كانهم أهل بيت واحد يألم الجار للجار

وياخذ الناهض بيدذي العثار . بربك هل نهضت أمة بغير ادمان المجتمعات . وهل أخصبت مودة اذا هى لم يتعهدها أهلها بالزيارات لقدجار فى حكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق وجعل تلك الكلمة التى رمى بها حكيم الافغان أساسا لحكمه فصرفه التقليد عن النظر اليها بعين عقله فمن أين للمصريين أن يتفقوا اذاهم لم يجتمعوا

ومنها اقتصاد المال وأنت ترى ان هذه الستة الافدنة تكاد تبلغ ماتخرجه ارض وادى النيل من الخيرات ولا يغرنك ماترى فى عاصمة الفرنسيس فان أهلها من الاكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب ولكن من جيب الغريب ونحن انما نفعل ذلك ليذهب الغريب باموالنا . ويسخر من جهالنا